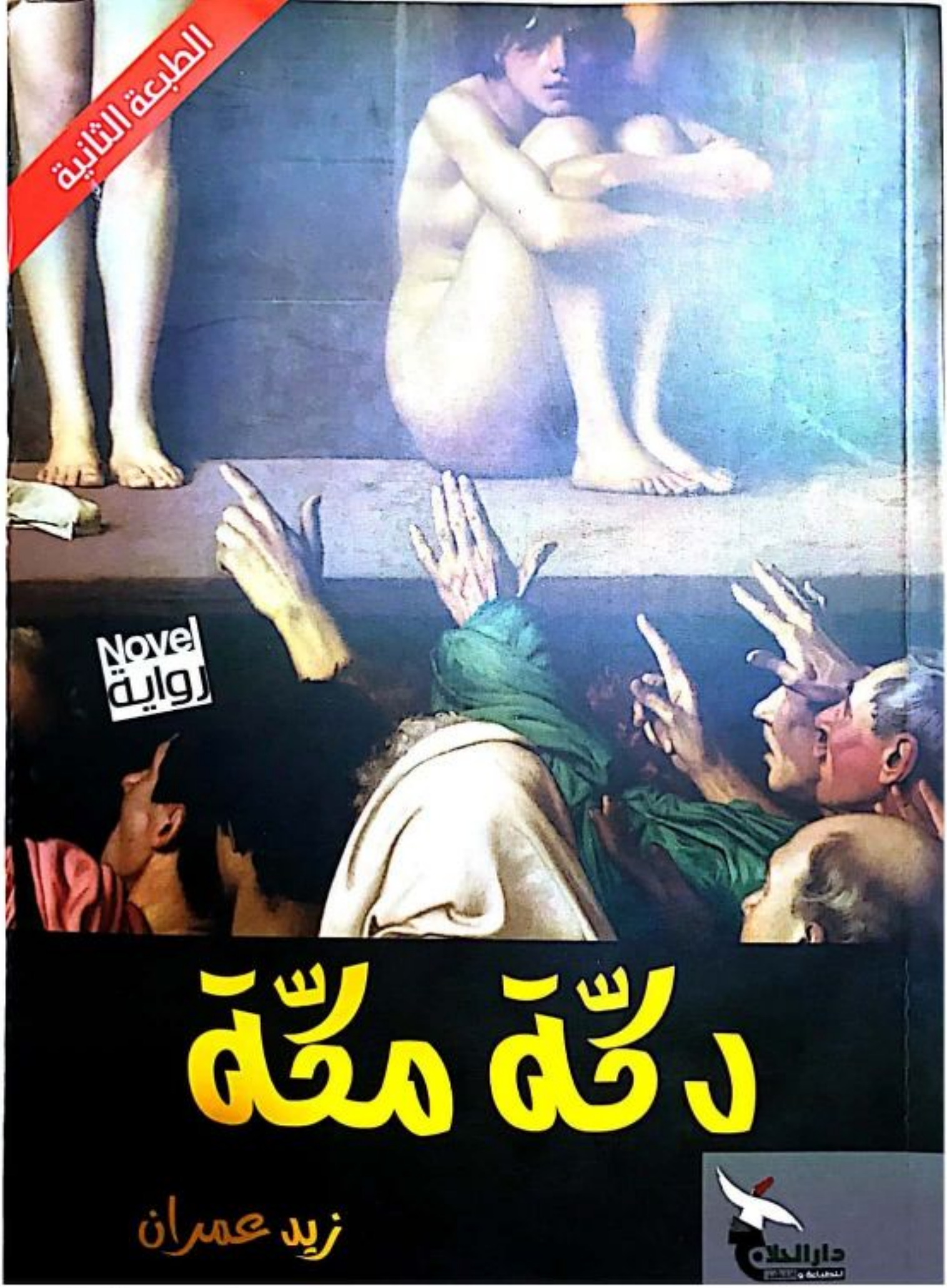

@book_worm98
Scanned with CamScanner
Scanned with CamScanner

دكة مكة

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

دكة مكة

رواية

زيد عمران

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

الكتاب: دكّة مكّة

الكاتب: زيد عمران

الطبعة: 2019

الناشر

دار الحلاج للطباعة والنشر والتوزيع
العراق / بغداد - شارع المتنبي
email: dar.alhallaj@yahoo.com
+9647718539445
+9647801991695

التوزيع خارج العراق

دار المؤلف
Dar Al-Moualef

بيروت - لبنان
هاتف: 00961 1 823720
فاكس: 00961 1 825815
info@daralmoualef.com

تصميم الغلاف: علي حجازي
صورة الغلاف: جان ليون جيروم
التنقيح اللغوي: ريهام الغنام – د. نغم قحطان العزاوي
الإخراج الفني: القسم الفني في دار الحلاج

© جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للدار والمؤلف، حسب قوانين الملكية الفكرية لعام 1988، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أي معلومات أو صور من هذا الكتاب بطريقة إلكترونية أو ميكانيكية أو أي وسيلة أخرى بما في ذلك النسخ الضوئي إلا بإذن خطي من الطرفين.

All copyright and translation reserved for publisher and author ،in accordance with intellectual property laws of 1988. The copyrighted portions of this book may not be reproduced or transmitted in any form or by any means ،electronic or mechanical،including photocopying،recording،or by any information storage and retrieval system ،without permission in writing from the publisher.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

الإهداء

إلى (ماكينزي) التي لا يعرفها أحد.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

رواية مبنية على أحداث حقيقية

حدثت بين عامي 1950 و1975 في مكّة

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

1

أصعدوها عارية، وأوقفوها على الدكّة، كلما غطّت نهديها وبُضعها بيديها، نكزها النخّاس ابن ناصر من خلفها، وإن هي أصرت على تغطيتهم، مدّ يده وأرخى يديها، كانت ترتجف رغم كل الترتيبات والتعليمات التي حاول ابن ناصر وبمساعدة بعض جواريه الشُمُط، المتخصصات بإعداد الجواري، وتعليمهن ما ينبغي عليهن فعله، وهنّ على دكّة العبيد، وطريقة إغراء الزبائن الجائعين للحم الفتيات الصغار، لكن (ماكينزي) كانت مجرد طفلة في الثامنة من عمرها، كان من الصعب عليها أن تنسى أنها قبل ثلاثة شهور فقط، كانت تستيقظ كالأميرات على صوت أمها الرخيم، وهي تناديها بأن ترتدي ثيابًا لائقة، وتأتي لتناول الإفطار، فقد كانت تتناول إفطارها بثياب النوم الفضفاضة، رغم تقريع أبيها وتوصيات أمها بأن لكل وقتٍ ثياب خاصة به.

ضجّ سوق سويقة ذلك اليوم بهمهماتٍ وضحكاتِ رجالٍ كثيرين، حتى أن الضجيج غطى على أصوات الطائفين حول الكعبة، فلم تعد تُسْمع التلبية المدوية للحجاج والمعتمرين الذين بلغ تعدادهم ذلك العام خمسين ألفًا، لم يعهد سوق سويقة هذا العدد

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

الكبير من الرجال من قبل، حتى أنك لا تستطيع السير بصورة مستقيمة في باب الدرية كلها، دون أن ترتطم بجماعة منهم، لأن ابن ناصر استخدم في اليومين السابقين كل علاقاته وحيَلِهِ ومكره في نشر خبر الجارية (ماكينزي) ووصفها بأنها حورية عين شاردة من الجنة.

في الحقيقة إن ابن ناصر كان محقًّا في وصف (ماكينزي) فقد كان جمالها مختلفًا عن كلّ الجواري التي عرفتها مكة، بشرتها بيضاء كالشمع المذاب في كأسٍ من كريستال نادر، وعيناها زرقاوان، لا كما بقية العيون الزُرق، زرقة عينيها عميقة، كلون مياه خندق ماريانا، حيث أعمق نقطة في المحيطات وقت هدوئه، أنفها مستقيم مع ارتفاعٍ قليلٍ في آخره عند الشفتين، أما شفتاها فقصة حبٍّ من ألف ليلة وليلة، شفتاها مكتنزتان كنصفي ثمرة فراولة ناضجة، شعرها أشقر يتخلله موجات بنية، وكانت لديها خصلة بيضاء في مقدمة رأسها ورثتها عن أبيها، بالرغم من أنها ما زالت في الثامنة إلا أن طولها الفارع يجعلك تعتقد بأنها ابنة العشرين، نحيفة بالنسبة لبنات مكة، لكنها ممتلئة قليلًا عن بنات لبنان، بطنها ضامرة، كأن الله خلق لها خصرًا فقط ولم يجعل تحته أحشاء،

ما أن صعدت عارية على الدكَّة، حتى هجم قطيع الرجال الراغبين في الشراء، أو الذين كان يتملكهم الفضول لرؤية حور العين الشاردة من جنة عدن،

لم تعد الدكَّة تسعهم، فاضطر ابن ناصر إلى الصراخ بهم، وطلب منهم أن يصطفوا طابورًا، كي يتسنى للجميع رؤيتها ومعاينتها، كل

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

هـذا الضـجيج و(مـاكينزي) تصـرخ مصـدومة، لكـنَّ صـراخها لم يمنـع الرجـال مـن تلمـس نهـديها الصـغيرين، الـذين لم يتجـاوزا بعـد حجـم ثمـرة الجـوز، وتمريـر أيـديهم الخشـنة علـى صـدرها وعنقهـا وقفاهـا وعجيزتهـا، وفخـذيها، بينمـا راح الـبعض يمسـك وجههـا بقـوة، ويفـتح فمهـا ويفحـص أسـنانها وينظـر داخـل أذنيهـا، وذهـب الـبعض إلى شـمِّ ريحـة إبطيهـا، وتلمُّـس شـعرها، وهـم يتهامسـون غـير مُخفـين اسـتغرابهم مـن الألوان المتعددة فيه، بين الأبيض والأصفر الأشقر والبني.

بعد أن هدأ الجميع، صاح ابن ناصر بأعلى صوته:

• هـل رأيـتم في حيـاتكم أجمـل مـن هـذه الجاريـة؟ أنا مسـتعدٌّ لإعطـاء مـن يخـبرني بأنـه رأى أجمـل منهـا أو بجمالهـا، عشـرة عبيـد مخصيين؛ خمسة من اليمن وخمسة من العراق.

فجاء صوتٌ من بين المحتشدين:

• ومـا الـذي يجعلـك متأكـدًا هكـذا، بأن لا أحـد مـن الحاضـرين قـد رأى جاريـةً بهـذا الجمـال، وفي الحاضـرين أسـياد مكـة وأعيانهـا ومـن لديه باعٌ طويل مع الجواري الحسان؟

فقال ابن ناصر:

• لأني أنا مـن تعرفـون، تاجـرُ عبيـد أبًا عـن جـد، ولم تمـرَّ علـيَّ جاريـة بهـذا الحسـن وهـذا الـدلال، إنهـا مـا زالـت صـغيرة وهـي بهـذا الجمـال السـاحر الـذي تشـاهدون، فكيـف سـيكون جمالهـا عنـدما تكتمـل أنوثتهـا؟! أنـتم تعرفـون بأن عـادة تجـار العبيـد أنهـم أول مـن يطـأ الجـواري العـذارى، لكـني أؤكـد لكـم أن هـذهِ الجاريـة مـا زالـت بكـرًا

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

كـالرحيق المختـوم، لم يطمثهـا إنسـي - قبـل مـن سـيكون صـاحبها - ولا جان.

وقهقـه ابـن ناصـر وقهقـه معـه الحضـور، ثمَّ أعلـن فـتح المـزاد بعشرة آلاف قطعـة ريالٍ فضـية، وسـرعان مـا صـاح رجـلٌ أعـور مـن آخـر الصفوف:

- خمسة عشر ألفًا.

وصاح آخر:

- ستة عشر ألفًا.

ثمَّ أنَّ رجـلًا قصـيرًا ذا وجـهٍ مصـاب بنـدوب الجـدري، كـان يرتـدي زي أهل مكة وهو من أعيانها، قال:

- سأشتريها بعشرين ألف ريالٍ.

صاح ابن ناصر فرحًا:

- هذه سمات الأعيان، فليس كلُّ أحدٍ يعرف قدر الجواري.

فصرخ الرجل الأعور من آخر الصفوف:

- عليَّ بخمسة وعشرين ألف ريالٍ، ريال ينطح ريال.

وشـقَّ الصـفوف حـتى وصـل قريبًـا مـن الدكـة، وأزاح اللثـام، فعرفـه ابـن ناصـر، إنـه تاجـر رقيـق معـروف يـدعى (مصـطفى إسـلام) فقـال ابـن ناصر:

- يا للمفاجـأة.. ابـن إسـلام بنفسـه يزايـد علـى الجاريـة!! هـل كسدت تجارتكَ يا ابن إسلام، أم أن في الأمر لعبة ما؟

فقال ابن إسلام:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• ليس هناك شيء يا ابن ناصر، لكني أحببت أن أشتري هذه الجارية بهذه الطريقة لعلمي بطمعك وبخلك، وأنك لن تبيعها لي حتى تعرضها على الدكّة، فلم أشأ أن أذل نفسي عندك، وعلى أي حال فأنا أريدُ أن أشتريها كي أهديها لشخصٍ عزيز عليَّ.

ففكر ابن ناصر في الحال بأن مثل هذه الجارية لا تهدى إلا للملوك والشيوخ، فأراد ألا تقع الجارية في يد (مصطفى إسلام) منافسه في بيع الجواري والعبيد للعائلة الحاكمة، فنظر صوب متعب بن شهري، أحد أعيان مكة وتاجر حريرها المعروف، وكان واقفًا مع بعض عبيده يرمق الجارية من بعيد ويداعب شاربه، ثم قال له:

• أليس لكَ رغبة في هذه الجارية الحريرية يا ابن شهري؟ فالحرير لا يعرفه إلا تاجر حرير كمتعب بن شهري.

فكانت لكلمات ابن ناصر هذه أكبر الأثر في نفس ابن شهري، شعر ابن شهري بالغرور يتملكه، خصوصًا عندما راح الجميع ينظرون إليه، وقال بصوتٍ متكلف:

• كم وصل المزاد عندك يا ابن ناصر؟

فقال ابن ناصر:

• لقد وصل إلى خمسةٍ وعشرين ألف ريال يا سيِّدي.

ومطَّ ابن ناصر كلمة سيِّدي ليغريه أكثر.

فقال ابن شهري:

• أربعون ألف.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

فسكت الجميع كلهم دفعةً واحدة، لم يتوقع أحد - ولا حتى ابن ناصر نفسه - أن تصل قيمة الجارية إلى هذا الحد، وقبل أن يعلن ابن ناصر نهاية المزاد، وبيع الجارية لابن شهري، انشقَّ الناس إلى شقين، مفسحين الطريق لسيارة كاديلاك صحراوية اللون، تتوقف السيارة على مقربة من الدكّة، وينزل منها رجلٌ يرتدي زي أهل جدة، وسرعان ما يحيط به كثيرٌ من العبيد، يتقدم الرجل بخطواتٍ واثقة حتى يصل إلى ابن ناصر ويخاطبهُ بصرامة:

• يا ابن ناصر، لقد سمع الأمير بأمر الجارية اللبنانية، ولقد بعث إليك بخمسين ألف ريال، ضع عليها ملابسها فورًا، ولتركب معي السيارة.

فقال ابن ناصر وهو يشير على مساعديه بتنفيذ أمر أمير مكة:

• لو بعث الأمير يطلبها لأحضرتها إلى قصره بنفسي، ولما تكبدت عناء الحضور يا سيدي، فأنا خادمٌ للأمير، بل عبدٌ من عبيده، وأرجو منه أن يقبل هديتي المتواضعة إليه، إنه عبدٌ عراقي مخصي اسمه جميل، لم أعرضه على الدكّة بعد، تأكد يا سيدي بأني لم أر جسمًا مثل جسمه، إنه بقوة سبعة ثيران.

فقال الرجل:

• أسرع به إذًا وليركب مع العبيد، وسأبلغ الأمير بهديتك إليه.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

2

توجهت السيارة التي أقلَّت (ماكينزي) والسيارات الثلاث الأخريات التي تكتظُّ بالحرس والعبيد، نحو الشمال الشرقي من المسجد الحرام، أجلسوا (جميل) في الخلف مع عبدين آخرين، خُيِّل إليه أنهما يرمقانه بنظرةٍ باردة، أبعد عينيه عنهما وراح ينظر من زجاج النافذة نحو البيوت المتلاصقة كتوأم سيامي خرافي، جميل عبدٌ مؤصلٌ، فقد ولد عبدًا من والدين من العبيد، لا يعرف ماذا تعني كلمة مشاعر، لكنه رغمًا عنه - وفي شعور لا يفهم كنهه - بدأت أنفاسه تأخذ منحًى آخر غير المنحى الصامت الهادئ الطبيعي، وضع يديه على فمه كي يخفي صوت أنفاسه التي بدأت تتلاحق وكأنها أنفاس أرنب في فم كلب صيد، ثم راحت مخاوفه تتصاعد بوتيرة البيوت نفسها التي تقل بالتدريج، بيتًا.. بيتًا.. حتى اختفت تمامًا، عندها توقفت السيارات الثلاث أمام بوابة قصر السقاف، السيارة الكاديلاك الصحراوية التي كانت تقل (ماكينزي) لم تتوقف، بل شقَّت طريقها عبر البوابة الرئيسية الكبيرة للقصر، واختفت في إحدى زواياه الكثيرة ودروبه الملتوية كأفعى غاضبة،

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

ترجَّل (جميل) من السيارة بسرعة، حتى قبل أن يكمل المسؤول عنهم كلمة:

- انزلوا.

السوط الذي كان يحمله المسؤول، يعرفه (جميل) جيدًا، يعرفه أكثر من لون عينيه، وأكثر من عدد أصابع يديه وقدميه.

توجه) جميل) مع باقي العبيد - الذين راح الحرَّاس يركلونهم ويضحكون - نحو أحد المداخل الثانوية للقصر، قبل أن يدخل من الباب، توقف (جميل) ولاحت منه التفاتة نحو الأعلى، هذه الالتفاتة أرَّقته تلك الليلة، وصارت لديه ثلاثة أشياء يفكر بها في الأيام التي تلت:

* لماذا التفتَ إلى الأعلى؟ إنها أول مرّة يفعلها في حياته، لماذا التفت مع علمه بأن العبيد لا يحق لهم النظر إلا إلى الأرض؟

*ماذا يعني أرق؟ لمَ لا ينام كأيِّ ثور بعد يومٍ طويلٍ من جرِّ المحراث؟

* لماذا يفكر أصلًا؟

حانت من (جميل) التفاتة إلى الأعلى، فرأى حاميات بفتحات مستطيلة على الجانب الشمالي للقصر، مليئة بجنودٍ مثقلين بالسلاح،

دفعه أحد الحراس بعد أن أربك العبيد السائرين خلفه، فلم يعتد العبيد على الوقوف من تلقاء أنفسهم ومن غير أمرٍ من مالكيهم،

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

توجـه الحـرّاس بالعبيـد إلى الـركن الغـربي مـن قصـر السـقاف، إلى دار هناك، تلك الدار التي يسمونها (دار العبيد)..

أدخلوا العبيد، أوقفوا جميلًا ثم نادى المسؤول صاحب السوط:

• رهيف.

فخـرج (رهيـف) مثـل تنـين ضـخم، أحمـر العينـين، ينفخ النـار مـن رئتيـه، ويقـذف مـن عضـلات صـدره حممًـا بركانيـة.. (رهيـف) هـو مسـؤول بيـت العبيـد، وهـو عبدٌ زنجي مـن التكارنـة - نسـبة إلى مملكـة تكـرور الإفريقيـة، أعطـى المسـؤول السـوط لـ (رهيـف) وأشـار إليـه برأسـه بحركـةٍ فهمهـا (رهيـف) فأخـذ (جميـل) وربطـه علـى نخلـة هنـاك وراح يجلـده.. (رهيـف) يجلـد (جميـل) بصـمتٍ وبـرود، و(جميـل) يتلقـى ضـربات السـوط بصـمتٍ وبـرودٍ أيضًـا، وكـأن ظهـره لـيس لـه، بعـدما سـالت الـدماء مـن شـقوق ظهـر (جميـل) أخـذ المسـؤول سـوطه مـن يـد (رهيف) وقال له بنبرة اشمئزاز:

• كفى.

فحمـل (رهيـف) (جميـل) إلى داخـل بيـت العبيـد وطرحـه علـى بطنـه فـوق حصـيرةٍ هنـاك، ثمّ نادى علـى زنجـي عجـوز يـدعى (ميمـون) وأمـره أن يهـتم بـ (جميـل).. جـاء (ميمـون) وراح يقتلـع قمـاش القمـيص الغائر في الجرح، فـ (رهيـف) قـد جلـده دون أن يخلـع قميصـه عنـه، كـان لا بدَّ من تعريـة (جميـل) تمامًـا، فالسـوط قـد مرَّ علـى كـلِّ جسـمه تقريبًـا وخلّف خلفه آثارًا تشبه إلى حدٍّ ما، مخالب وحشٍ مفترس.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

فـزَّ (ميمـون) مـن مكانـه كمـن رأى ثعبـانًا بـين رجليـه، ثمَّ قـرَّب وجهه وفتح فخذي (جميل) وتلمَّس خصيتيه، وقال له:

- هل تعلم أن خصيتيكَ متعفنتان كخبزة شعير رطبة منسيّة؟

أجاب (جميل):

- أعلم، لكني لا أشعر بالألم.

فقال (ميمون):

- هـذا الـذي أخصـاك لم يكـن يريـد أن يـتخلص مـن فحولتـك، بل كان يريد أن يتخلص منك.

قال (جميل):

- وهبـني سـيدي المـدني إلى صـديقه العجـوز (عثمـان) تاجـر التمـر البحـريني، بعـدما اشـترى منـه محصـول بسـتانه الـرديء، كـي يخفّـفَ عنـهُ خسـارته، وفي البحـرين تـركني سـيدي (عثمـان) في بيـت زوجتـه الأولى، الـتي كـان مشـغولًا عنهـا بزوجتـه الثانيـة الصـغيرة وجواريهـا، فكانـت تضـربني وتأمـرني بمعاشـرتها أكثـر مـن عشـر مـرّات يوميًّـا، وحـدث أن أمسـك بنـا سـيدي (عثمـان) فطلّـق زوجتـه وأرام قتلي، لكـن جواريهـا شـهدنَ بأنهـا كانـت تضـربني وتجـبرني علـى معاشـرتها، فقـام بإخصـائي بنفسـه، أمـر عبـدين بإمسـاكي ووضـع خصـيتيَّ علـى حجـر وبقـي ممسـكًا بهمـا مـن الأعلـى، مـن ناحيـة الـذكر، بيـده اليسـرى، وضـربهما بحجـرٍ آخـر في يـده اليمـنى، تمكنـتُ مـن سمـاع صـوت إحـدى خصيتيَّ، هكذا:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

"بُقْ" أما الثانية فلم أتمكن من سماع صوتها، لأن صوت صراخي خرق أُذن السماء.

فعلَّقَ (ميمون):

• شهدتُ مرّةً إخصاء أحد الأطفال، كان في التاسعة من عمره، بتروا عضوه الذكري بالكامل بالموسى، وبتروا معه خصيتيه، ثم صبُّوا في الحال على المكان زيتًا مغليًّا، ثم جاءوا بالحناء مجففًا ومهروسًا هرسًا ناعمًا، بعدها ثبتوا أنبوبًا في مجرى البول، وأخيرًا دفنوا جزأه الأسفل حتى صرته في الأرض، قالوا أنهم سيتركونه هكذا لثلاثة أيام، ثم يخرجونه ويدلكوا مكان الجرح بزيت الزيتون وسيشفى.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

3

توقفت السيارة الكاديلاك الصحراوية التي تقل (ماكينزي) أمام قصر الأمير في القسم الجنوبي من قصر السقاف، حيث معظم القصور الملكية، وقاعات استقبال الرؤساء والملوك وكبار الضيوف، من سفراء وقناصل الدول العربية والإسلامية، ورؤساء بعثات الحج، وكبار الحجاج والمواطنين،

قصر الأمير يتكون من طابقين، بُني القسم الأكبر منه، بما في ذلك واجهته العريضة، على الطراز الإسلامي، حيث النوافذ نصف الدائرية من الأعلى المزخرفة بآياتٍ قرآنيةٍ وشذر أزرق وياقوت أحمر، أما من الداخل فقد صمِّم القصر على طرازٍ إنجليزي من العصر الفيكتوري، يشتمل الطابق الأول على مكتب الأمير وقاعات استقبال وقاعات رياضية وترفيهية كقاعة البلياردو التي تُعد تحفة فنية بحد ذاتها، مصنوعة من خشب السبستان المكسيكي الذي يفوق سعره سعر الذهب، ويضمُّ أيضًا مسرحًا مبطنًا بخشب الدالبريجيا الفاخر من مدغشقر، أما الأرضية والجدران، فقد بُنيت كلها من الرخام الحر، عدا الأعمدة العديدة العالية فقد جيء بها من إيطاليا كاملة، أعمدة من الطراز الكورنثي، منقوشة بصور حيوانات مختلفة،

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

وأشكال لعبيد يتصارعون داخل المدرج اليوناني الأشهر؛ الكولوسيوم، يلحق بالطابق الأول من الخارج غرفة للحرس وسائقي السيارات، وغرفة للعبيد والجواري المخصصين للخدمة داخل القصر، كالطبخ والتنظيف وخدمة الأمراء الصغار، ومهام القصر الأخرى، كما يوجد كذلك مخزن كبير يحتوي على برّادات ومجمدات لحفظ اللحوم والخضار والفاكهة، أما الطابق الثاني فمخصص لزوجات الأمير الأربعة وحُجر الأميرات الصغيرات، وهناك جناح خاص للسراري والجواري والغلمان المخصيين، لا يقترب منه أحد ما عدا الأمير، وهو الجناح الذي وضعوا فيه (ماكينزي).

دخل الأمير قسم السراري والجواري بعد أن أخبره خادمه، صاحب السوط بجلبها، كما أخبره كذلك عن (جميل) هدية النخّاس ابن ناصر لسمو الأمير.

قال الأمير لخادمه:

- جاء هذا العبد المخصي في وقته، فلقد طلبت مني سيدتك فاطمة - أصغر زوجاته الأربعة -عبدًا مخصيًا يحلُّ محل العبد الذي هلك قبل أيام.

الأمير في الخمسين من عمره، رجل وسيم، عيناه وشعره من الهند، ولون وجهه فارسي ومزاجه عربي، حينما وقعت عيناه على (ماكينزي) لم يصدق ما رآه، رغم أنها كانت شاحبة وثيابها رثّة

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

والتفاتاتها تشبه المخبولين، حاول أن يتدارك نفسه فجلس قبالتها على كرسيٍّ من الجلد، لونه بنيّ محروق، وأمرها أن تجلس،

كانت معها عبدة من أرمينيا تدعى (نعيمة) وظيفتها إعداد السراري للأمير، أمسكت بيد (ماكينزي) الغائبة تمامًا عن هذا العالم، وأجلستها على أريكة من قماشٍ رمّاني، قبالة الكرسي الذي جلس عليه الأمير، لكن (ماكينزي) انتبهت للحظة، ورأت نفسها بمواجهة رجلٍ غريبٍ، أكبر من أبيها، فهلعت وهربت واختبأت خلف الأريكة، وجلست على الأرض، راحت العبدة الأرمينية بسرعة بينما قدماها ترتجفان خوفًا من الأمير، في محاولة لإحضار (ماكينزي) إلى الأريكة مرّة أخرى، لكن الأمير أشار إليها بالتوقف، ثمَّ وقف ضاحكًا وتوجه نحو (ماكينزي) وقرفص عندها وسألها عن اسمها، فلم تجب بشيءٍ ولم تستطع البكاء لكثرة ما بكت، فكانت تئن فحسب.

وقف الأمير وقال لمسؤولة السراري (نعيمة):

- ما اسمها؟

أجابت (نعيمة):

- اسمها (ماكينزي) يا سيّدي.

قال الأمير:

- وأي اسمٍ هذا؟

قالت (نعيمة):

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• أظنه اسمًا تتسمى به الفتياتُ المسيحياتُ الأرمنيات يا سيِّدي.

قال الأمير:

• هه.. أصبح لديكِ رفيقة من قومك يا (نعيمة).

قالت (نعيمة):

• أنا من أرمينيا، لكن هذه الفتاة تتقن العربية جيدًا، فأظنها من أرمنيات لبنان أو سورية يا سيِّدي.

قال الأمير:

• كم عمرها؟

قالت (نعيمة):

• ثمان سنواتٍ يا سيدي.

فقال الأمير باستغراب:

• أظنها تكذب، فهي تبدو أكبر من ذلك بكثير.

خافت (نعيمة) أن تخبر الأمير، بأن الطفلة لا تكذب، وأنها حقًّا ما زالت في الثامنة من عمرها، وأنها متأكدة أن الأمير يعرف جيدًا أنها ابنة ثمان،

فقالت (نعيمة) للأمير بعد لحظة تردد:

• نعم يا سيِّدي، ربما (ماكينزي) تكذب لأنها خائفة قليلًا، وستعتاد قريبًا على الحياة هنا.

فقال الأمير:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

- أنا لا أحب هذا الاسم.. لندعوها...

وفكر قليلًا ثم راح يردد بصوتٍ خافتٍ:

- (ماكينزي).. (ماكينزي).. (ماكينزي)..

ثم ابتسم ابتسامةً عريضةً وقال:

- لندعوها (مكة).. نعم مكة.. فأنا لم أمتلك جارية بهذا الاسم من قبل.

قالت (نعيمة):

- إنه اسمٌ جميل يا سيّدي، هي منذ اللحظة، اسمها (مكّة).

فقال الأمير:

- متى ستكون جاهزة؟

قالت (نعيمة):

- إنها صغيرة يا سيّدي، وأخشى أن الأمر يحتاج إلى فترة طويلة كي أستطيع تجهيزها لسموك و....

لم تكمل (نعيمة) جملتها، لأن الأمير أسكتها بصفعةٍ قويةٍ على فمِها، أدارت لها رأسها إلى الخلف، فسقطت بالقرب من (مكّة).

قال الأمير بعصبية:

- قلت لكِ أنها تكذب، فهي ليست صغيرة، أُمهلكِ أسبوعًا واحدًا لإعدادها.

وخرج الأمير ثم نزل إلى الطابق الأول، وولجَ إلى مكتبه ثم استدعى خادمه وأمره بإحضار الشيخ: أحمد آل السيخ - آل

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

السيخ هم من ذرية الشيخ محمود بن عبد الوهّاب صاحب المذهب الذي تُدين بهِ المشيخة- استقبل الأمير الشيخ أحمد آل السيخ في غرفة خاصة منعزلة، في الطابق الأرضي، خلف قاعة الاستقبال الرئيسية، وبعد المجاملات المتبادلة من قبل الطرفين؛ سأل الأمير الشيخ:

- ما رأي الشرع في وطء الجارية بنت ثمان يا شيخ؟

فقال الشيخ:

- أعزَّ الله الأمير، قال مالك والشافعي وأبو حنيفة: "حد ذلك أن تطيق الجِماع، ويختلفُ ذلك باختلافهن ولا يُضبط بسن"

وهذا يعني أن الشرع لم يحدد سنًّا معينة للدخول بالمرأة، فلا عبرة للسنِّ في هذا الباب وإنما العبرة للطاقة، إن كانت ضخمة سمينة تطيق الرجال ولا يخاف عليها المرض من ذلك; كان للزوج أن يدخل بها وإن لم تبلغ تسع سنين، وإن كانت نحيفة مهزولة لا تطيق الجماع، ويُخشى عليها المرض، لا يحل للزوج أن يدخل بها وإن كبر سنها، ودخول النبي (ﷺ) بأمِّنا عائشة كان بعد بلوغها هذا المبلغ، ولذلك تأخر بعد العقد عليها بنحو ثلاث سنوات، كما ورد في الصحيحين عن عائشة أن النبي (ﷺ) تزوجها وهي بنت ست سنين، وبنى بها وهي بنت تسع سنين، وما يؤكد مراعاة هذا المعنى قبل زفاف عائشة، أنها قالت: أرادت أمي أن تسمنني لدخولي على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلم أُقبل عليها بشيء مما تريد حتى أطعمتني القثاء

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

بالرطب، فسمنت عليه كأحسن السمن. رواه أبو داود وابن ماجه، وصححه الألباني.. وأنا أؤكد لكَ يا سمو الأمير على أن الصغر الذي هو مانع من الدخول بالمرأة، ليس هو الصغر المقابل للبلوغ، وإنما هو بمعنى عدم القدرة على الوطء، قال النووي في (روضة الطالبين): "المراد بالصغيرة والصغير من لا يتأتى جماعه، وبالكبير من يتأتى منه الجماع، ويدخل فيه المراهق" وبهذا يتبين أن الدخول بالصغيرة منوط بقدرتها على الوطء، لا بمجرد العقد، والقاعدة الكلية في ذلك هي قول النبي (ﷺ): لا ضرر ولا ضرار. رواه أحمد وابن ماجه، وصححهُ الألباني..

فما قولك أيها الأمير في الجارية التي ترغب في وطئها، هل تتحمل النكاح؟

فقال الأمير:

- نعم، وتتحمل أكثر من ذلك.

عندها قال الشيخ وقد بدت نواجذه:

- على بركة الله يا سمو الأمير.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

4

بعد أيام اصطحب (رهيفٌ) (جميلًا) إلى جناح الأميرة (فاطمة) صعد به إلى الطابق الثاني من بابٍ خاص بالحرم الأميري خلف القصر، أثناء الصعود قال له بلهجةٍ تشبه الاعتذار:

• أنا جلدتك يا (جميل) لأنني عبدٌ أطيع أوامر أسيادي، ولو كان الأمر بيدي، ولن يكون، لما فعلت، لكن جرت العادة أن يأمرونني بجلد كلّ عبدٍ جديد أو أمة أو قينة أو حتى سرّية، وهذا أتفه شيءٍ يمكنهم أن يفعلوه بك إن أنت أخطأت، هذه الحدائق التي تراها مكتظّة بالعشب والأشجار، مليئة بجثث العبيد أيضًا.

ثم سكت (رهيف) وبقي (جميل) صامتًا، وكأنه لم يسمع شيئًا، توقفا قُبالة باب الطابق الثاني وبقيا ينتظران الإذن بالدخول.

الأميرة (فاطمة) تنتمي إلى فرع خامل من فروع العائلة، جدها أخو الشيخ الحالي للبلاد (الشيخ عبد العزّة) والد زوجها الأمير، الذي قهر جميع إخوته وتسيَّد عليهم، كانت قبل زواجها بالأمير تتقاضى راتبًا شهريًّا هو الأقل بين نظيراتها الأميرات، لأن قوانين العائلة، تفرق حتى بين أفراد العائلة نفسها، فالأميرات والأمراء المقربون من سدّة الحكم يتقاضون راتبًا شهريًّا منذ ولادتهم يقدر بـ

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

150 ألف ريال، هذا المبلغ يقل بالتدريج حتى يصل إلى 20 ألف ريال شهريًا للأميرات والأمراء البعيدين عن صناعة القرار، والتي كانت عائلة (فاطمة) منهم، لكن الأميرة (فاطمة) بالطبع حصلت على مبلغ 18 مليون ريال لبناء قصرٍ لها، كباقي أفراد العائلة المالكة عندما تصبح أعمارهم ثمانية عشر عامًا،

وقد شيَّدت قصرها في المدينة المنورة، لامتلاكها عدة قصور في مكّة، حتى لو كانت مشتركة في ملكيتها مع باقي أخواتها، شيَّدت لها قصرًا كبيرًا وفارغًا معظم أيام السنة، لتستجم فيه أيامًا قليلة، لأنها تعشق البساتين أكثر من البادية، في كلِّ سنة تذهب مع ابنتيها (العنود، ولؤلؤة) وحاشية من العبيد لتستمتع بصفاء النسيم وعذوبته في مزرعتها الكبيرة العامرة بالنخيل والرمّان المحيطة بالقصر، تزوج الأمير من (فاطمة) وهي صغرى زوجاته الحاليَّات، سعيًا إلى إنجاب ولدٍ ذكر يحمل اسمه، ويرثه فيما بعد، حتى لا يتسلم أولاد إخوته مفاصل الدولة وثرواتها بينما يتقهقر هو في عتمة النسيان، محاولة الحصول على ولد ذكر كانت تشغل باله طيلة السنوات الثلاثين الفائتة.

تزوج الأمير من الأميرة (فاطمة) بعد أن فشل في إنجاب الوريث من مطلقاته الأربع وزوجاته الثلاث الأخريات، أخوات (فاطمة) الستة الأكبر منها سنًّا، كلهن أنجبن ذكورًا فقط، لذلك نصحه أعمامه وأخواته بالزواج من (فاطمة).. (فاطمةُ) الشابةُ ذات الاثنين

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

وعشرين عامًا، ما زالت جميلة، رغم السنوات الخمس الأخيرة التي أصبحت فيها زوجة الأمير المزواج العاشق للإماء والسراري والخادمات، جميلة بسمارها الخفيف وشعرها الطويل الذي يحاذي ركبتيها وعينيها الواسعتين كعيني نفطٍ لا ينضب، قوامها معتدل مع سمنة خفيفة ونهدين كبيرين، أكبر مما ينبغي، فمها الواسع يجعل ابتسامتها عريضة ومشعّة، وتهدي السلام للأرواح المتعبة، لكن أكثر ما يميّز (فاطمة) هي شخصيتها القوية، التي تختلف كثيرًا عن أخواتها وعموم أميرات العائلة، اللاتي لا يسعين لتغيير أزواجهنَّ، ويعشن حياتهنَّ الخاصة، بعيدًا عن تعكير أمزجتهنَّ بمتابعات مغامرات أزواجهنّ الكثيرة، حاولت (فاطمة) وبشتى الطرق أن تغير من زوجها لكنها اصطدمت بعقبة إنجاب البنات، فقد قال لها الأمير أنه سيفعل أي شيءٍ إن هي أنجبت له ولدًا ذكرًا، وحتى ذلك الحين فلا سلطة لها عليه، فقررت بعدها أن تهتم بشؤونها الخاصة، وأدركت متأخرة صحة نظرية باقي الأميرات، بعيش حياتهنَّ والتمتع بالأموال والقصور والسفرات والعبيد، وغضّ الطرف عن تصرفات أزواجهنّ، ما دام الأزواج يغضون الطرف عن حماقاتهن.

فتحت عبدة يمنية لهما باب الجناح وأدخلتهما إلى غرفة الاستقبال الكبيرة، بقيا هناك واقفين طويلًا حتى حضرت الأميرة (فاطمة) بكامل زينتها، فأطرقا برأسيهما إلى الأرض كي لا تلتقي

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

أعينهما بعينيها، انتظر (رهيف) الأميرة حتى جلست وأشارت لجاريتها أن تأمرهُ بالكلام، فقال:

• هذا هو المخصي (جميل) العراقي، عبدكِ وتحت تصرفكِ يا سيّدتي كما أمرتِ.

قالت الأميرة:

• من أين أنت يا عبد؟

فقال (جميل):

• من المدينة المنوّرة يا سيّدتي.

فقالت الأميرة بسخرية:

• وما قصة العراقي إذًا؟

فقال (جميل):

• عائلتي في الأصل من العراق، أتى بها جدكِ الأمير عبد الرحيم بن سفود (رحمه الله) من كربلاء، بعدما غزاها قبل 150 عامًا، وبقي لقب العراقي لصيقًا بنا.

قال (جميل) كلماته الأخيرة بوجعٍ وببطء، وكأنه يخرج الكلمات من أحشائه، ثمَّ سقط أرضًا منكفئًا على وجهه، قامت الأميرة من مكانها، بعدما رأت ظهر (جميل) الممزق، دنت منه قليلًا بينما قلّبه (رهيف) على ظهره، وراح يصفع وجهه في محاولةٍ منه لإعادة الوعي إليه، فلمَّا لم يفلح قال:

• هل أحمله إلى (ميمون) يا سيّدتي؟

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

فقالت الأميرة:

- ومن (ميمون) هذا؟

فقال (رهيف):

- إنه عبدٌ عجوز يعالج العبيد في دار العبيد يا سيّدتي.

فقالت الأميرة:

- اذهب أنت يا (رهيف) الآن.

فقال (رهيف):

- سمعًا وطاعة يا سيّدتي.

غادر (رهيف) بعدما وقف وانحنى للأميرة، تبعته العبدة اليمنية حتى تغلق وراءه باب الجناح، بينما بقيت الأميرة (فاطمة) تحدق بوجه (جميل) الأسمر الذي يشبه سمارها، وتتمعن بملامح الشباب التي تفتقدها في وجه زوجها الأمير.. (جميل) في السادسة والعشرين من عمره، قوي مثل بَغل، وبما أنه كان لا يرتدي شيئًا على نصف جسده الأعلى، فقد كانت عضلات صدره وبطنه وكتفيه واضحة، لا توجد ذرة دهنٍ زائدة في جسده، إنه أقرب إلى تمثال إلهٍ رومانيٍّ عارٍ منحوت من المرمر بالحجم الطبيعي.

لما عادت العبدة اليمنية، أمرتها الأميرة (فاطمة) بإحضار خصيين من عبيدها الخاصين لحمله إلى غرفة الخصي العجوز الذي هلكَ مؤخرًا وبإحضار الطبيب الهندي المسؤول عن علاج ابنتيها، بعد أن عاينه الطبيب بحضور الأميرة، وحدها معه، قال لها:

- لقد تعرض هذا العبد إلى عملية إخصاءٍ فاشلة.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

إحدى خصيتيه قد تلفتْ تمامًا، بينما خصيته الثانية محتقنةٌ وعروقها مسدودة، فما الذي تريدينني أن أفعله يا سيِّدتي؟ هل أزيلُ الخصيتين تمامًا وأتمَّ الإخصاء، أم أفتح عروق الخصية السليمة؟ لكن عليكِ أن تعلمي إن أنا فتحتُ عروق خصيته، فلن يُعَدَّ مخصيًّا.

فقالت الأميرة (فاطمة) على الفور:

• بل افتح عروق خصيته، إنه عبدٌ مسكين، وسأطلب من الخدم استبداله، ليعمل في الحدائق وإحضار مخصيٍّ آخر لي.

فقال الطبيب:

• أمركِ يا مولاتي، وأود أن أبدي إعجابي بقلبكِ الرقيق، حتمًا سيكافئك الله على هذا الصنيع، كما أنها عملية سهلة وسأنتهي منها سريعًا.

ابتسمت له الأميرة وقالت:

• سأعود على الفور، لا تذهب، قبل أن تأخذ مكافأتك.

فقال الطبيب:

• مكافأتي هي رضاكم عني يا سادتي.

ثمَّ أن الأميرة (فاطمة) ذهبت إلى حجرتها وعادت إلى حجرة العبد، كان الطبيب قد أوشك على الانتهاء، فقد كان مشغولًا بتضميد الجرح، وما أن انتهى وجمع معداته، واستدار نحو الأميرة (فاطمة) حتى أفرغت مسدسها في صدره، تجمع الحراس في الحال، فأمرتهم الأميرة برمي جثة هذا الكلب، الذي حاول التحرش بها.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

5

قامت (نعيمة) بتعرية (ماكينزي) بالكامل وحبستها في حجرةٍ عتيقة تحت الأرض، الحجرة ضيقة مثل قفص حيوانٍ وحيدٍ في حديقة حيوانات بائسة، أرضية الغرفة من التراب الرطب، وسقفها وحوائطها من الإسمنت الصلب، مظلمة كقبر، بلا نوافذ أو إضاءة، بابها الوحيد من الحديد الصدئ، محكم الإغلاق كأنه امتدادٌ للحائط، لا توجد فيه أي فتحة يدخل منها الضوء، ما أن يُغلق على أحدٍ ما، حتى يصبح الباب ليس له وجود، وكأن الغرفة رحم عنزةٍ سوداء ميتة،

قبل أن تغلق (نعيمة) على (ماكينزي) الباب؛ قالت لها:

• حاذري يا مكّة، من تلك الثقوب بين الحائط الأيمن والأرض، فلربما خرجت منها أفاعي وعقارب.

أغلقت (نعيمة) الباب مع صرخة (ماكينزي).

في البداية بقيت (ماكينزي) واقفة في منتصف الحجرة، تخاف أن تقترب من الجدران، تتلفت بفزعٍ حول نفسها، مع أنها لم ترَ شيئًا، أحسَّت بالبرد، راحت تفرك يديها وتنفخ عليهما من فمها قليلًا.. قليلًا، وتدعك بهما صدرها، بطنها، وتنزل بالتدريج، توقفت عن النفخ لشعورها بالاختناق، راحت تمسك برقبتها وكأنها تريد فتح

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

مجرّى آخر لدخول الهواء إلى رئتيها، أصبح المكان حارًّا جدًّا فجأة، لدرجة نسيانها الاختناق، مع ولادة شعورٍ جديد تحول إلى رغبةٍ جامحة لنزع جلدها، للتخلص من هذا الحرّ، التصقت في الزاوية بين جدارين، كي تستولي على برودتهما، نجح الأمر، فشعرت بالراحة قليلًا، سالت على الجدار كما يسيل الزيت، وتجمعت في الزاوية كشرنقة وغفت، أيقظها الجوع، راحت تحبو وتطرق الحائط، حتى وصلت إلى الباب واختلف صوت الطرق، طرقت كثيرًا (ماكينزي).. صرخت كثيرًا.. بكت كثيرًا.. توسلت يسوع والعذراء والقديس غريغوري بالذات، حيث كانت أمها تقدم له النذور كي يحمي طفلتها، لكنَّ أيًّا منهم لم يمدَّ لها يد الرحمة.

في اليوم التالي كلمتها (نعيمة) من خلف الباب وسألتها عن اسمها ومن أين أتت، فقالت (ماكينزي):

- أنا جائعة يا (نعيمة)؟

فقالت (نعيمة):

- لقد صنعتُ لكِ شوربة العدس والدراق اللذيذة، ستتناولينها ما أن تجيبي على أسئلتي.

فقالت (ماكينزي):

- أنا (ماكينزي) من قرية يقال لها بزمار، في جبل لبنان، وأدرس في البطريركية الأرمنية هناك، أذهب مشيًا من بيتنا إلى البطريركية، أختار طريقًا مختصرًا يمرُّ عبر الغابة، لاحظنا - أنا

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

وصديقتاي آنا وسيلفانا - ثلاثة رجال وكأنهم يراقبوننا ليومين متتاليين، أخبرتُ أمي بالأمر، إلا أنها لم تعطِ للأمر أهمية، لكن وبعد إلحاحي وإصراري، على أني أشعر حقًّا بالخوف، قالت أمي:

• مع أني أدري أن الأمر لا يعدو عن خيالات طفلة، معجبة بقصص الرعب التي يرويها لها أبوها، إلا أني أعدكِ أننا سنذهب سويًّا من الطريق نفسه، الذي تذهبين به إلى البطريركية في قداس هذا الأحد، لتقتنعي أن ما من أحد يتبعكِ وأنها مجرد خيالات.

كان هذا الكلام في ليلة الجمعة، وفي صباح تلك الليلة رأينا الأشخاص الثلاثة يجلسون على الدرب ووجوههم إلى الجهة الأخرى من الطريق، توقفنا قليلًا، أنا أردتُ أن أرجع لكن (آنا) قالت بأننا قطعنا نصف المسافة وسنتأخر بالعودة وأخذ الطريق العام، وما هي إلا بضع خطوات ونتجاوزهم وينتهي الأمر، وافقت (سيلفانا) فما كان مني إلا الانصياع لرغبتهما، ما أن وصلنا بقربهم، حتى هجم علينا الرجال الثلاثة بسرعة، وكمموا أفواهنا بمناديل قطنية أفقدتنا الوعي، عندما استفقت وجدتُ نفسي مع مجموعةٍ كبيرة من الأطفال، أولاد وبنات، في الطبقة السفلية لمركب كبيرة، توقفت المركب في سواحل كثيرة لم أعد أذكر عددها، في كلِّ موقف كان يدخل رجال ويتفحَّصوننا، أخرجوا (آنا، وسيلفانا) واقتادوهما وهما يصرخان، بينما كنتُ مصابةً بالحمَّى ودوار البحر ولم أقوَ على الصراخ، كنت أسمع الرجال الذين كانوا يأتوننا بالطعام أنهم يتوقعون

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

موتي، لكنني لم أمت حتى هذه اللحظة، هل يحق لي الآن أن آكل؟ فالجوع يكاد يقتلني، وها قد أجبتُ على أسئلتكِ يا (نعيمة).

فقالت (نعيمة):

• إن كلَّ ما قلتِ.. ما هو إلا خيالات، ما زلتِ مصابة بالحمَّى وتهذين، لكن مع ذلك فأنا سأعطيكِ كأس ماءٍ وقطعة بسكويت، حتى ترجعين إلى رشدكِ وتتذكرين بأنكِ عبدة واسمكِ (مكّة) وأنت ملكٌ للأمير، يفعل بكِ ما يشاء.

فقالت (ماكينزي):

• أقسم لكِ يا (نعيمة) أن كل ما قلته حقيقة.

فقالت (نعيمة):

• الآن سأفتح الباب، وأضع لكِ كأس ماءٍ وقطعة بسكويت على الأرض، وأريد منكِ أن تتوجهي إلى الزاوية، وتديري ظهرك نحو الباب، حتى تسمعي صوت إغلاقه، ثمَّ تأتين لأخذ طعامك.

فلمّا فتحت (نعيمة) الباب، هجمت عليها (ماكينزي) وهي تصرخ غاضبة، وتحاول الخروج، دفعتها (نعيمة) إلى الداخل بقوة، فسقطت كأس الماء، وتبدد على الأرض، رمت (نعيمة) قطعة البسكويت إلى الداخل، وأغلقت الباب، بينما أعادت (مكّة) محاولة اقتحام الباب، وظلَّت تصرخ وتضرب الباب بيديها ورجليها كلبؤة جريحة، قالت لها (نعيمة) قبل أن تتركها وتذهب:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• ستبقين حتى الغد بلا ماء، لأنكِ أهدرتِ حصتكِ لهذا اليوم، عليكِ أن تدركي أن حصتكِ من الماء، هي كأسٌ واحدة كل يوم، حتى تعود إليكِ ذاكرتك.

بقيت (مكّة) تضرب الباب برأسها، بعد أن تعبت يداها ورجلاها، وبدأ صوت صراخها يخفتُ شيئًا فشيئًا، وأمتزج مع البكاء والنحيب، حتى خَمَد، راحت تبحث عن قطعة البسكويت في جوف الظلام الرهيب، لكنها لم تستطع إيجادها، خطرت على بالها فكرة أن (نعيمة) أخذت معها قطعة البسكويت، لكنها رأتها وهي ترميها، وربما سمعت صوت سقوط القطعة على الأرض، ربما هي تتخيّل أنها رأت (نعيمة) ترمي قطعة البسكويت، وتتخيّل كذلك أنها سمعت صوتها، إن كانت فعلًا تتخيّل ذلك، فهل هذا يعني أن (نعيمة) على حق، وأنها تتخيّل أنها (ماكينزي) وليست (مكّة)؟ أيعقل أنها تتخيّل نفسها بكل هذا الوضوح؟

قالت لنفسها بصوتٍ مسموع:

• أنا (ماكينزي) من بزمار، من كيسروان، أمي تدعى (سيتا) وأبي يدعى (أوهانيس) لديَّ دمية دب اسمه (فيليبس) سريري صغير، بلونين أحمر وأخضر، تخرج منه قدميَّ حين أنام، أمي وأبي يلحّان عليَّ بتغييره، وأنا أرفض، في غرفتي طاولة صغيرة بيضاء، وكرسيٌّ جلديٌّ أسود، أرضيَّة غرفتي مفروشة بسجادةٍ بنيّة، عليها نقشة قطتان وكلب بلونٍ وردي، سريري تحت النافذة المطلة على الجبل، كل

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

صباح تخرج الشمس من خلف الجبل، وتدخل حجرتي، في عيد ميلادي السابع، أهداني أبي عصفورين أصفرين، أخرجتهما في اليوم نفسه إلى الحديقة، وفتحت باب القفص كي ألعب معهما، لكنهما طارا بعيدًا، ولم يرغبا باللعب معي، يا يسوع.. هل أتخيّل كلّ هذا؟

بقيت (ماكينزي) تداور أفكارها، مثل رقصة درويش، حتى منتصف الليل، هدأت أفكارها وضجّت معدتها، راحت تبحث عن قطعة البسكويت، لكن بحرصٍ أكثر هذه المرّة، لم تترك شبرًا من الأرض لم تبحث به، ابتدأت من مكان جلوسها، وراحت تزحف وتتلمس الأرض، حتى وجدتها أخيرًا، في ركن الأفاعي والعقارب، عندها أدركت أنها لم تكن تتخيل قطعة البسكويت، وبالتالي فإنها لم تكن تتخيل أنها (ماكينزي).

في اليوم الثاني جاءتها (نعيمة) وسألتها أسئلة اليوم الأول نفسها، فقالت (ماكينزي):

- لماذا لا تصدقين يا (نعيمة)؟ أقسم لكِ بأني (ماكينزي) وأني أخبرتكِ الحقيقة.

فقالت (نعيمة):

- سأفتح الباب الآن، وأضع لكِ كأس الماء، وقطعة بسكويت أخرى، وأطلب منكِ أن تذهبي إلى الزاوية، وتديري ظهركِ، حتى أغلق الباب مرّةً أخرى.

فقالت (مكّة):

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• هـل لـكِ أن تعطيـني خرقـة أمسـح بهـا الغـائط الـذي لصـق بجسمي؟

قالت (نعيمة):

• مـا دمـتِ لم تـدركي بعـد أنـكِ عبـدة الأمـير، فـلا أهميـة لـذلك، ستتعفنين علـى أي حـال هنـا، لـيس هنالـك فـرق، بـين أن يلتصـق بـكِ الغائط، وبين أن تكوني بكلكِ غائط.

فتحـت (نعيمـة) البـاب، وشـاهدت (مكّـة) عنـد الزاويـة، ووجههـا عنـد الحـائط، فتبسـمت، ووضـعت كـأس المـاء، وقطعـة البسـكويت، وأغلقت الباب.

في اليـوم الثالـث عـادت (نعيمـة) وسـألت (مكّـة) عـن اسمهـا، ومـن أيـن أتـت، فسـمعت صـوتًا خافتًـا يشـبه همـس الأبـوين، عنـدما تكـون طفلتهمـا المريضـة نامـت للتـو، جاءهـا الصـوت وكأنـه مـن الضـفَّة الأخرى للسماء:

• لم أعد أعلم من أنا... أرجوكِ أخبريني من أكون.

رمـت لهـا (نعيمـة) بعـض الثيـاب، وتركـت لهـا كـأس لـبن مخلوطـة بالعسـل، وشـوربة العـدس والـدراق، ورمانـة كبـيرة، ودلـوَ مـاءٍ ومنشـفة، وأغلقت الباب.

في اليـوم الرابـع جـاءت (نعيمـة) ولم تـتكلم مـع (مـاكينزي) لكنهـا سمعت وقـع أقـدام عنـدما كانـت تفـتح البـاب، وضـعت لهـا طعامًـا جيـدًا علـى الأرض، وتركـت البـاب مفتوحًـا، كانـت (مـاكينزي) جالسـة

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

القرفصاء في الزاوية، تخبئ وجهها في ركن الغرفة، عادت إليها (نعيمة) بعد ساعة، فوجدت الطعام ما زال عند الباب، و(ماكينزي) ما زالت عند الزاوية، ووجهها تجاه الحائط، تنتظر أن يُغلق الباب حتى تأكل، قالت لها (نعيمة):

• الآن يمكنكِ الخروج يا (مكّة) ستتعلمين اليوم الرقص والغنج، وفي الغد سأعلمكِ فنَّ إسعاد الرجال.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

6

كان الطبيب (سليم خان) قد أعطى لـ (جميل) حقنة منوّمة، جعلته لا يشعر بما حدث حوله، من إطلاقٍ للرصاص، وضجة الحرس، ودخول وخروج العبيد، الذين رفعوا الجثة، والإماء اللاتي قمن بالتنظيف،

استفاق (جميل) في اليوم التالي للحادثة، بعد العصر، وجد نفسه وحيدًا في حجرةٍ جميلة، تحتوي على سريرٍ خشبي، مغطًى بحشية من القطن، مغلفة بقماشٍ من الكتان الأصفر الترابي، المقلم بخطوطٍ بنية غامقة عريضة، وعلى قدميه إزارٌ أبيض، تتوسطه شجرة عارية من أوراقها، أغصانها الملتوية كنبات اللبلاب المتسلق، الأغصان بنية اللون، لكنها ليست بنية خالصة، بل لونها البنّي متدرج ببطء، نهاية الغصن تبدو مثل سيخٍ حديديٍّ مكشوف، من سقف بناية قديمة، نافذة الغرفة تطل على الساحة الخلفية للقصر، شاهد (جميل) من خلالها العبيد الأفارقة، وهم يحملون أكياسًا من الصوف، وأخرى من البلاستيك، وصناديق من الخشب، وجثثًا لحيوانات كثيرة، ويدخلونها إلى مخزن القصر، الذي يقع في الخلف، يبدو أنهم يملؤون المخزن بالأرز والسكّر والشاي والحبوب واللحم، جلس (جميل) على السرير

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

منتظرًا أوامر المالك الجديد، فهو لا يعرف أن يعمل شيئًا دون أن يأمره أحد بذلك، جلس على السرير وراح ينظر للمروحة السقفية، وهي تدور.. وتدور... مثل حمارٍ أمره سيده بالدوران، فراح يدور دون أن يفهم؛ أنه داخل حجرةٍ لناعور عتيق، دون أن يدرك بأن دورانه هذا يجلب المياه من نهرٍ لم تتسنَّ له رؤيته، ويذهب بالماء إلى بطون أراضٍ حالت عبوديته دون أن يتمشى بها.

في المساء، جاء الأمير لجناح الأميرة (فاطمة) جلس في قاعة الاستقبال الرئيسية للجناح، لقد كان على عجلة من أمره، كان لا بدَّ له من السفر خارج البلاد، لكنه عدَّل جدول أعماله، وسرق منه ساعة، كي يمرَّ بالأميرة ويفهم منها؛ ما الذي جرى بالضبط، بينها وبين الطبيب (سليم خان)!! قابلته الأميرة (فاطمة) بجفاف، كلُّ تعابير وجهها كانت تخبره بأنها لا تحتمل وجوده، تجيدُ الأميرة (فاطمة) التعبير عمَّا بداخلها من خلال نظراتها وتعابير وجهها، أوحت للأمير بأنها غاضبة منه، وأنها تفتقد وجوده بقربها، وقد ملّت ابتعاده الدائم، وانشغاله بقطيع حريمه.

عندما سألها الأمير عمَّا جرى؛ قالت له:

• لقد طلبتُ حضوره ليكشف على العبد الخصي الذي بعثته لي، حتى أتأكد من أنه مخصيٌّ حقًّا، وخالٍ من الأمراض المعدية، أنت تعلم ما تعاني منه ابنتنا (العنود) من الحساسية المفرطة، بعد أن أخبرني بأن العبد مخصيٌّ باحتراف، وأنه سليم تمامًا من الأمراض،

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

تركته وانصرفت، لكن فجأة خطر في بالي، سؤالٌ عن صحة البنتين، فالتفتُ إليه، فوجدتهُ ينظر إلى ردفيّ، فلم أتمالك نفسي من الغضب، قلت له: "انتظر حتى أعود لك بمكافأة" فذهبت إلى حجرتي وأخذت مسدسك وأفرغته في صدره.

فقال الأمير:

• لقد فعلتِ الصواب، كنتُ أتمنى لو أنه ما زال حيًّا، لما كنتُ قد قتلته، لكنتُ جعلته يتمنى الموت ولا يجده.

فقالت الأميرة:

• هل تعلم ما أكثر ما أغضبني، في كلِّ ما حدث؟

هزَّ الأمير رأسه بإشارةٍ عن عدم معرفته، فقالت الأميرة:

• أنت.

فقال الأمير باستغراب:

• أنا؟!!

قالت الأميرة:

• نعم أنت، لا أدري كيف وثقت بـ (سليم خان) وتركته في مهنته داخل القصر، بعدما أحضر لكَ أخته (عائشة) من الهند، ووضعها في قطيع حريمك؟ أم تراكَ أنت من طلبتَ منه ذلك؟

قام الأميرُ مستاءً، وصل إلى الباب، لكنه عاد وخاطب الأميرة بحدّة، بعدما كان يمثل الهدوء والاهتمام:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• هل تريدين أن تعرفي؛ لماذا بتُّ أكره وجودي معكِ؟ لأننا في كلِّ مرّة نصل إلى هنا، لماذا لا تتعلمين من باقي الأميرات، كيف يهشن ويبشن بزيارةِ أزواجهنَّ إليهن، وكيف يحاولن إسعاد أزواجهن، وعدم تعكير أمزجتهم! ليس لديكِ الحق في الغيرة من باقي النساء، نقل عن سيدنا علي بن أبي طالب أنه قال: "غَيْرَةُ الْمَرْأَةِ كُفْرٌ وَغَيْرَةُ الرَّجُلِ إِيمَانٌ" ثمَّ.. أني أخبرتكِ ألف مرّة، بأن الكلب (سليم خان) طلب مني أن يحضر أخته ليجد لها عملًا، لأنها تعاني من الفقر، وليس لها معيل، فسهلتُ أمر قدومها إلى هنا، ولأنها أرادت أن تشكرني وأصرت على أخيها، وهو بدوره قد طلب مني أكثر من مرّة، وافقت على رؤيتها، وحين رأتني وهبت نفسها لي وقالت: "والله أنا لك عبدة، ولن أغادر مكاني حتى تضمني إلى نسائك" هل أنا أول رجلٍ يقبل بامرأةٍ تهب نفسها له؟ ألم يفعل ذلك نبينا مُحَمَّد ﷺ؟ هل أنا بحاجة إلى نساء، كي أطلب من (سليم خان) أو غيره، أن يحضر لي أخته؟! هل فعلتها من قبل؟ لماذا كلما رأيتني عندك، أعدتِ عليّ الكلام نفسه، وأني طلبت من (سليم خان) إحضار أخته لي؟ ألا تتعبين؟ ألا تملين؟

هل هناكَ من أمل أن ننتهي من هذه القصَّة يومًا؟

قالت الأميرة (فاطمة) بكل هدوءٍ وثقةٍ - بعد أن رأت ما فعلت بالأمير، وأنها عكَّرت عليه مزاجه لأيامٍ قادمة - وابتسامةٍ ساخرةٍ تثير الجنون:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• أنت لم تفعلها من قبل يا سمو الأمير، فقط مع والد (نعيمة).

ثار الأمير جدًّا هذهِ المرّة، وضرب بيده تمثالًا خشبيًّا لفيل هندي فكسره، ولم يهدأ حتى كسَّرَ أواني الفاكهة الموضوعة على الطاولة، حيث تجلس الأميرة (فاطمة) واستمر بتكسير كلِّ شيءٍ معها، إبريق العصير الزجاجي وأكوابه، و(دلّة) القهوة المرمرية، وفناجينها، ثمَّ قال:

• هل تحاسبيني على شيءٍ فعلته قبل أن أتزوج بكِ؟ لقد مرَّ على الحادثة عشر سنوات، هل تجدينه ذنبًا يستحقُّ أن تذكريني به بين فترةٍ وأخرى؟ ليكن بعلمكِ أني لستُ نادمًا على شيء، شاهدتُ (نعيمة) في افتتاح بئرٍ للنفط مع أبيها، مهندس المشروع، وأعجبتُ بها، أغرقتُ أباها المدمن على الخمر والقمار بالديون، وعندما حان موعد التسديد لم يجد وسيلة، غير بيع ابنته (نعيمة) في سوق العبيد في الطائف، وأنا كنتُ المشتري، وحتى بعد أن انتحر، لستُ نادمًا، هذه هي الحياة، لكل شيءٍ ثمن، للخمر ثمن، للقمار ثمن، للّعب مع الكبار ثمن، أنا لم أجبره على شيء، ولم أخرج عن تعاليم الله، استدان برضاه، وباع ابنته برضاه، وأنا دفعت ثمنها واشتريتها، والآن سأذهب، أريد منكِ أن تعيدي حساباتكِ يا (فاطمة) فأنا لن أتحملكِ أكثر.

فقالت الأميرة (فاطمة):

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• قبل أن تذهب، أريد منك أن تسمح لي بالذهاب إلى قصري في المدينة، لتمضية بعض الوقت، أنا متعبة مما جرى بالأمس، وأعدك أني سأفكر في كلامك بجديَّة هذه المرّة، وستسمع مني وترى ما يرضيك.

فقال الأمير وقد ابتسم وانشرحت نفسه:

• نعم، سافري وتمتعي ببستانكِ، فهذا أوان الرطب، يناسبني جدًّا أن تروّحي عن نفسك هذه الفترة، فأنا سأكون مشغولًا جدًّا، أتمنى حقًّا أن تخففي من غيرتكِ، وتعودين كما كنتِ؛ قمري وأجمل نسائي.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

7

في الحمَّام، بينما كانت (نعيمة) تراقب جاريتين زنجباريتين، وهما ينظفان الجسم الصغير لـ (ماكينزي) أحست برابطٍ ما، يربطها بهذا الكائن المقبل على العذاب، ربما شعرت بالشعور نفسه، الذي كان يشعر به الكهنة المصريون، وهم يجهزون جسد عروس النيل، لإلقائها إلى الوحش الساكن في باطن المياه،

أمرت (نعيمة) القينتين بالانصراف، واقتربت من جسد الطفلة، وراحت تفرك شعرها، ثم قرَّبت فمها من أذن (ماكينزي) وهمست لها:

- اسمعيني جيدًا يا (مكّة).. لا يمكنكِ أن تتخيلي عذاب الروح الحرَّة، في مجتمع من العبيد، لذلك عليكِ أن تقنعي بعبوديتكِ، وتتخلين عن فكرة أنكِ إنسانة حرّة، عليكِ أصلًا التخلي عن فكرة كونكِ إنسانة،

اسمعيني جيدًا وافهمي ما أقول لك، فأنا لم أتعود أن أقدم النصيحة إلى أحد، كما أني تعلمتُ كلَّ ما سأقول لك بالطريقة الصعبة، لم يخبرني أحد، ولم يعلمني أحد؛ كيف أتصرف، حاولي أن تعيشي يومكِ دون أن تفكري في الغد، أو تأملي بيومٍ أفضل من يومك، حاولي.. وكرري المحاولة، وستنجحين، حاولي أن تستفيقي

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

كلَّ صباح، وأنتِ مخلوقة لهذا اليوم فحسب، انسِ أنكِ كنتِ يومًا، كائنًا ما، انسِ نفسكِ وأمكِ وأباكِ وابن جيرانكم وصديقاتكِ وألعابكِ ولون النَّهار وصورة القمر، سأطلب منكِ الآن شيئًا قذرًا - فكري به جيدًا - لا تحكمي عليه الآن، أريدُ منكِ أن تستمتعي، وأنتِ تحت أي حيوان يقوم باغتصابك، لا تَكرهي نفسك، أو تحملينها ذنبًا، فأنتِ مجبرة على كلِّ شيء، منذ اليوم الذي وقفتِ فيه على (دكة) العبيد بجوار الكعبة، نعم، هناك شيء ربما ينفعك أن تعرفيه؛ أنت وحدكِ يا (مكّة) لا وجود ليسوع أو الله أو ملائكة طيبة، الأرض يحكمها الشيطان، تمَّ بيعك بجوار بيت الله، ولو كان هناك في بيته، لسمع صراخك، ولهبَّ لمساعدتك، لكن البيت فارغ يا (مكّة).. تذكري دائمًا أنكِ وحدكِ ولا وجود للمعجزات، سأتركِ الآن للقينتين الزنجباريَّتين، وسألتقيكِ فيما بعد، لأعلمكِ الرقص وبضعة أشياءٍ أخرى، وتكون مهمتي قد انتهت معكِ، ثم أدعكِ إلى مصيركِ.

كانت (ماكينزي) تستمع إلى كلام (نعيمة) بصمت، غير قادرة على الكلام، كلام (نعيمة) قاسٍ جدًّا، بقسوة الملح على جرح السوط، لكنه واقعيٌّ جدًّا، حدَّ الاشمئزاز.

دخلت القينتان وراحتا تكملان عملهما، بينما ذهبت (نعيمة) إلى غرفتها وأشعلت سيجارة، وكرعت جرعة فودكا من فم الزجاجة الكريستال، التي تشبه صدر امرأة مُرضعة.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

(نعيمة) هي المسؤولة عن قسم السراري، لذلك كان من الطبيعي أن تحظى بأوسع وأجمل غرفة، من الغرف الثلاث والتسعين الأخرى، التي يحتويها قسم السراري في قصر الأمير،

هذا ليس كلّ شيء، فقسم السراري يحتوي كذلك على صالات كبيرة، مزينة باللوحات الفنية النادرة، والتماثيل، والخزف الأوربي والصيني، وحمّامات جماعية من الرخام والمرمر الفارسي، مكتظة بالأجساد العارية من جميع الألوان، ويحتوي القسم كذلك على مطابخ، وصالات للرقص، وأماكن للتدليك، وأجهزة موسيقى عملاقة، ومخازن للعطور والعود، والبخور الهندي الذي كان الأمير يعشقه بشراهة، وهناك أيضًا قسم خاص، يكاد يكون مستشفى مصغَّرة، تعمل فيها طبيبات، تمَّ شراء ذممهن الصفراء بالأموال الخضراء للنفط الأسود.

جاءت (نعيمة) تجر ذيل فستانها الحريري الأبيض الشفّاف، ترتدي وشاحًا مطرزًا بالذهب، يغطي نصف رأسها الأعلى، ولا يخفي باقي شعرها الذي يسرح بكل حرية على ظهرها العاري، بينما كان صدرها يئنُّ من ثقل الجوهرة الزرقاء، التي وضعتها بين نهديها، كما اكتفت بتزيين رقبتها بعقدٍ من اللؤلؤ الخليجي، الذي مات في سبيل إحضاره مئات العبيد، الذين غطسوا لاستخراجه، ولم يروا نور الشمس بعد ذلك.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

وصلت إلى صالة الرقص وهي مخمورة تمامًا، لم تكن (نعيمة) تتوقع أن شيئًا ما يمكن أن يذهب بنشوة السُّكر، التي حصلت عليها طوال الساعتين الأخيرتين، وهي تتكرع أنواع الخمور، كي تنسى جسد (ماكينزي) الطري الصغير، الذي يشبه غزالًا مولودًا للتو، يحاول أحد الصيادين أن يشويه على النار التي تأكل الحطب العظيم، بكل ضراوة وشهية، لكن (نعيمة) كانت مخطئة، فنظرة واحدة لجمال (ماكينزي) وهي تقف وسط صالة الرقص، بثيابها القطنية الصفراء الفاخرة الرقيقة، التي لا تخفي ما تحتها، جعلتها تستفيق من سكرها، على شروق شمسٍ ذهبية، تعمي عيون الناظرين.

كان شعر (مكّة) الأشقر قد حِيكَ بالمجوهرات الباهتة الرقراقة، التي أخذت من جمال (مكّة) جزءًا صغيرًا، فبدت أثمن المجوهرات وأندرها في كلِّ الوجود، قرطا (مكة) الخضراوان، جعلا رقبتها تبدو كمنارة مسجد دمشق الأعظم، وأنت تراه من أعلى جبل قاسيون، في ساعةٍ متأخرة من الليل، قدماها الصغيرتان، كانتا أشدُّ بياضًا من (حجليها) الفضيين اللامعين، المطرزين بالبلاتين والماس البرازيلي الزيتي، الذي يشع من تلقاء نفسه، لكن بريق قدمي (مكّة) غطى عليه وجعله يبدو كالظل.

بعد أن التقطت (نعيمة) أنفاسها، ودعكت عينيها بقوة، قالت لـ (ماكينزي):

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• سأعلمكِ الرقص الشرقي الآن، لكن عليكِ أن تعرفي أن الرقص ليس وسيلة إغراء للرجال فقط، بل هو الهواء الذي يبقيكِ على قيد الحياة، الرقص سيغنيكِ عن أشياءٍ كثيرة، كالبكاء والصراخ والشكوى والجوع.

وسكتت (نعيمة) فجأة ثم تنهدت، واسودَّت عيناها بغيمةٍ عابرة، منذرة بعاصفةٍ من الدموع قريبة الوقوع، فقالت (ماكينزي):

• وهل نجوع هنا؟

فقالت (نعيمة):

• الجوع هنا مختلف، ستشعرين بالجوع وأنتِ تجلسين على مائدةٍ ضخمة متخمة بكل أصناف الطعام، ستشعرين بالجوع إلى الحبّ، وعندها عليكِ أن ترقصي.

وبدأت (نعيمة) بالرقص، راحت تُقدم قدمًا وتُؤخر أخرى، وتلتفُّ وتنحني، وكأنها تحاول الطيران لتخرق السماء، وتذهب إلى مكانٍ لا يلحق بها إليه أحد.. نسيت (نعيمة) أنها تحاول تعليم (ماكينزي) الرقص، وراحت ترقص، لأنها كانت تشعر بالجوع.

في اليوم الأخير الذي حدده لها الأمير، جلبت (نعيمة) (مكة) إلى سريرها، وبدأت تشرح لها طريقة إسعاد الرجل:

• افتحي أذنيكِ يا (مكّة) واسمعيني بعقلكِ، أنا أعلم أنكِ ما زلتِ صغيرة على ذلك، لكنني أثقُ بذكائكِ، الرجال يا (مكّة) عقولهم ليست في رؤوسهم، وإنما في رؤوس قضبانهم، الرجل يفعل كل

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

شيء، من أجل هذه اللحمة الصغيرة المتدلية بين فخذيه، يخوض الحروب، يسرق، يقتل، يخون، ويفعل كلَّ الجرائم التي لا يمكن أن تخطر لكِ على بال، من أجل هذا الشيء، أنا هنا بسببه، وأنتِ كذلك، وكل هذا القطيع من النساء اللاتي ترينهم هنا، يتحول الرجل إلى وحشٍ مفترس، ما دامت تلك اللحمة منتصبة، وما هي إلا ثوانٍ حتى ترتخي، وتعود متدلية، كلسان كلبٍ يلهث، وينتهي كل شيء، فيعود الرجل كائنًا ضعيفًا هادئًا أبلهًا،

كلُّ ما عليكِ هو تحريك هذا الشيء، وجعله يتصلب، ثمَّ تجعلينه يرتخي بسلام، وبعدها يمكنكِ أخذ كل شيءٍ من الرجل.. في البداية، دعي أصابعك الصغيرة تداعب شعر رأسه، وكأنكِ تُدلكين جمجمته الفارغة، سيجعله ذلك يشعر بنشوةٍ خفيفة، فزيدي من شعوره بالنشوة قليلًا.. قليلًا كما لو كنتِ تعزفين الموسيقى، وتصعدين السلَّم الموسيقي درجةً.. درجة، قبلي عينيه ووجهه وشفتيه، وانزلي أكثر وقبلي رقبته، افعلي كلَّ ذلك وأنتِ تداعبين شعره، ثمَّ استخدمي يدكِ الأخرى وقومي بتدليكِ جلد ظهره، سأزودكِ بزيتٍ عطريٍّ لتستخدميه، لأن الزيت سيجعله يخدر، ويسهل عليك عملية التدليك، ولن تشعري بالتعب سريعًا، تأكدي أن تكوني ليّنة وحنون أثناء ذلك، ثمَّ اتركي ظهره واهتمي بالتقبيل أكثر، قبّلي حلمة أذنه اليسرى أولًا، ثم انتقلي إلى حلمة أذنه اليمنى، وتنهدي بهمسٍ فيها وكأنكِ تشعرين بالعطش، ثمَّ التقطي حلمة أذنه اليمنى وعضّيها

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

بنعومة مرّة ومرتين، وشدّي عليها قليلًا، لكن لا تعضيها بقسوةٍ بالغة فينفر منك، هل تعلمين ما هي تفاحة آدم وأين تقع؟

فقالت (ماكينزي):

- لا.

فقالت (نعيمة):

- إنها هنا – وأشارت لـ (ماكينزي) على مكانها – تذكري مكانها جيدًا، فالرجال يثيرهم أن تلمس المرأة رقابهم، خصوصًا تحت الفكين، تفاحة آدم من المناطق السريّة في جسم الرجل التي تثيره بقوة، وهناك مكان آخر يثير الرجل بجنون وهو صدره، فالرجل يعشق أن تداعبي صدره، وأن تمشين عليه بوجهكِ ذهابًا وإيابًا، وأن تقبّليه في الرواح والعودة، وحاولي أن تداعبي حلمتيه وتلتقطيهما بلسانك، وتمصّيهما بغنجٍ وصوتٍ مسموع، وأيضًا من المناطق السريّة للرجال هي أقدامهم، فإن وجدتِ نفسكِ عند قدميه فداعبيهما بنهديكِ، فسيجن جنونه، فإن وصلتِ معه إلى هذا الحدّ فاتركيه يفعل بكِ ما يشاء.

ثمّ أن (نعيمة) أدركت أن هذه الأشياء كثيرة على طفلة بعمر (ماكينزي) فاستلقت على السرير وقالت لها:

- سأكون أنا الأمير الآن، وأريد منكِ أن تطبقي ما علمتكِ إياه معي، وسأصحح لكِ وأنبهكِ إن نسيتِ أو قمتِ بشيءٍ بشكلٍ خطأ.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

8

وصلت الأميرة (فاطمة) وابنتاها الأميرتان الصغيرتان (العنود، ولؤلؤة) إلى قصرها في المدينة المنورة، وقت صلاة العصر، لقد جاءت الأميرة بحاشية صغيرة نسبيًّا معها، خمسة عبيد مخصيين.. (جميل) سادسهم، وثمان إماء من أقرب جواريها، إضافة إلى سائقين اثنين، وخمسة عشر رجلًا مسلحًا، هم من خواص فصيل حمايتها.

استقبلها عبيد القصر المقيمون، ومسؤول الخدمة به، والطباخون، والفلاحون، وعيون المصلين الداخلين إلى مسجد قباء القريب.. الأميرة (فاطمة) لا تثق بأحدٍ مطلقًا، فليس للأميرة صديقة واحدة من الأميرات، والنساء الكثيرات في العائلة، حتى علاقتها بأخواتها كانت علاقة جافة نوعًا ما، الأميرة (فاطمة) تعتبر مصدر غموض عند الكثيرين، لكن هناك امرأة واحدة فقط، تثق بها الأميرة ثقةً مطلقة، وتخبرها بكل شيء، وتطلب نصيحتها، وتأخذ بمشورتها، هي مربيتها؛ العبدة اليمنية (أنيسة) التي لم تكن تستغني عنها، حتى عندما تزوجت الأمير، جلبتها معها من بيت أبيها.. (أنيسة) كانت سَرية عند الأمير سلطان، والد الأميرة (فاطمة) لفترةٍ طويلة، ثمَّ أنه أعتقها بعد ولادة ابنته الأميرة (فاطمة) بعدّةِ أيام، أعتقَ الأمير

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

سلطان (أنيسة) ككفارة عن خطأ ارتكبه، فقد قَتَلَ أحد المواطنين، عندما كان ثملًا وأطلق الرصاص من سيارته في الشارع عشوائيًا.. (أنيسة) لم ترضَ بالحرية، وتوسلت بالأمير أن تبقى عنده، فجعلها مربية خاصة للأميرة (فاطمة) فسخّرت كلَّ حياتها من أجلها، وقد سرت شائعة قديمة في قصر الأمير (سلطان) مفادها بأن الأميرة (فاطمة) هي ابنة (أنيسة) لكن بطبيعة الحال، لو أن الشائعات تُؤخذ على محمل الجد، لكان نصف الأمراء والأميرات مشكوك بنسبهم.

في ذلك المساء، بعد وصول موكب الأميرة إلى المدينة، بينما كانت (أنيسة) تُعدُّ فراش أميرتها، وتتأكد من أن كلَّ شيءٍ في محله، وأن الأميرة ستخلد إلى النوم بطمأنينة، وفي ختام كلِّ ترتيباتها، وضعت (أنيسة) الأميرة (فاطمة) في سريرها، وأدنت منها مئزرًا قطنيًا مطرزًا، في حالة حاجتها إلى غطاء، وهمّت بالمغادرة، لكن الأميرة أمسكت يدها، وأجلستها قربها على السرير، ثم قالت لها:

• لقد أتيتُ إلى المدينة لأختلي بالعبد العراقي يا (أنيسة) لم أعد أحتمل فتات زيارات الأمير، هل تعلمين بأنه قد مضت ستة شهور على آخر مرّة لمسني فيها؟ إنه مشغولٌ بجواريه ومحظياته، وحتى بغلمانه، فأنا أعلم بأنه يجامع غلمانه الصغار، لقد حاولتُ يا (أنيسة) أن أغيّر طباعه دون جدوى، أنت تعلمين بأني حاولت كثيرًا وبشتى الطرق، لكنه لم يتغيَّر ولن يتغيَّر.

فقالت (أنيسة):

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• إنها مجازفة كبيرة يا سيّدتي، ثمَّ أن العبد العراقي خصيّ.

ردَّت الأميرة:

• لا، إنه ليس خصيًّا، إن الذي قام بإخصائه لم يكن يعرف ما يفعل، فقد أخصى إحدى خصيتيه وترك الأخرى سليمة، لقد أخبرني بذلك الطبيب (سليم خان) قبل هلاكه.

فقالت (أنيسة) بصوتٍ خافتٍ جدًّا:

• وهل هناك من يعرف بذلك غيرك، وغير العبد يا سيّدتي؟ ألا تعتقدين بأن العبد يمكن أن يكون قد أخبر أحدًا آخر بالأمر؟

ردت الأميرة بصوتٍ خافت، يبدو أن العدوى قد انتقلت إليها من (أنيسة):

• لا تخافي يا (أنيسة).. لا أحد يعلم بالأمر، حتى العبد نفسه لا يعلم.

فقالت (أنيسة):

• لا توجد مشكلة إذًا يا سيّدتي، أنا سأحرص على ألا يقترب منكِ أحد في خلوتكِ معه.

فقالت الأميرة:

• وماذا سأفعل إن خاف ورفض؟ هل أقتله في الحال، أم أحاول معه أكثر؟

فقالت (أنيسة):

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• هـل نسـيتِ أنـه عبـد؟ العبيـد لا يعرفـون أن يقولـوا (لا) لسـيدهم يا سـيّدتي، وفي حـال اكتشـفنا أن أحـدًا مـا، شـكَّ في وجـود علاقـة بينكمـا، عنـدها سـنتخلص فـورًا مـن العبـد، لكـني أريـد منـكِ يا سـيّدتي أن تضـيّقي عليـه الخنـاق مـن جانـبٍ آخـر، حـتى لا يُصـاب بالغرور، ويرتكب أي حماقة.

قالت الأميرة:

• وكيف أفعل ذلك؟

فقالت (أنيسة):

• اشـتري أمـه وأباه، إن كـانا مـا زالا حيَّـين، أو إحـدى أخواتـه، أو أحـد إخوتـه وأخبريـه أنـه إن سـولت لـه نفسـه أن نطـق بشـيء، فالقتل لن يكون من نصيبه وحده.

فقالت الأميرة:

• أظنهـا فكـرة جيـدة، أحضـري لي العبـد العراقـي في الصـباح، بعد أن أنتهي من الفطور مع الأميرتين.

وقـف (جميـل) أمـام الأمـيرة في الصـباح، مطـأطئ الـرأس، شـابكًا يديـه أمـام سُـرّته المكشـوفة، مرتـديًا وزرة بيضـاء - إزارًا فضفاضًـا يغطي أسـفل بـدن العبـد إلى منتصـف السـاق، لا يُرتـدى شـيء تحتـه - بينما كان جسده الأعلى عاريًا.

قالت له الأميرة:

• لقد أخبرتني سابقًا بأنك من المدينة، فهل لديكَ أقارب هنا؟

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

فقال (جميل) وهو مُطرق الرأس:

- لدي أبي وأمي وأختاي يا سيدتي.

فقالت الأميرة:

- ما رأيكَ أن تذهب لزيارتهم؟

فلم يجبها (جميل) وبقي صامتًا، فصاحت بهِ الأميرة:

- لِمَ لا تجيبني أيها العبد؟

فردَّ (جميل) متلعثمًا:

- المعذرة يا سيدتي، لكني لم أفهم ماذا تقصدين بـ (ما هو رأيك؟).

فقالت الأميرة:

- هل تريد أن تذهب لزيارتهم؟

فقال (جميل):

- شكرًا لكرمكِ وإحسانكِ يا سيِّدتي، لكني لا أعرف أين يسكنون، لأني لم أغادر أبدًا المزرعة التي ولدت بها، إلا عندما أهداني سيدي السابق لتاجر التمر البحريني.

فقالت الأميرة:

- ما اسم سيدك السابق؟

قال (جميل):

- التاجر البحريني تقصدين يا سيدتي أم ...

فقالت الأميرة:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• أووووف... أقصد السيد الذي يملك أمك وأبيك وأختيك؟

قال (جميل):

• (عبد الله الحجازي الثقفي) يا سيدتي.

فقالت الأميرة:

• ما هي أسماء عائلتك؟

فقال (جميل):

• اسم أبي (عبد الرحمن العراقي) وأمي اسمها (درّة) وأختاي (هند، وبركة).

فقالت الأميرة لـ (جميل) وهي تشير إليه بيدها كي يبتعد عن وجهها:

• اذهب الآن مع العبيد الآخرين الذين يعملون في البستان، وليجد لك مسؤولكم عملًا تقوم به.

التفتت الأميرة إلى (أنيسة) فأحنت المربية رأسها في إشارة بأنها فهمت مراد الأميرة، وخرجت في الحال ثم توجهت إلى أحد الحراس، وأمرته بإحضار (عبد الله الحجازي).. حينما جاء (الحجازي) كلّمته الأميرة من وراء ستار وقالت له:

• لقد اشتريت عبدك الخصي (جميل) مؤخرًا، وعندما علم بحاجتي إلى عبدٍ (شاطر) يعرف بالنخيل وأعماله، أخبرني عن أبيه (عبد الرحمن العراقي).. قال بأنه فلاحٌ عتيق، يعرف بكلِّ أمور

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

النخيل، أظن بأنه يريد أن يجتمعَ بعائلته فحسب، ولا صحة لكلامه، أليس كذلك؟

كان (عبد الله) رجلًا مسنًّا، قصيرًا، أسمرًا، ترك الجدري آثاره على كلِّ وجهه، مما جعله يبدو قبيحًا، حتى مع لحيته البيضاء الطويلة، وشاربه الذي تركه دون تحديد، كي يخفي أكبر قدر ممكن من نقاط الجدري، كان يرتعش بين أيدي الحراس الذين جلبوه إلى القصر، وهو يقف مستمعًا إلى كلام الأميرة، لكنه بللَ نفسه، عندما سمع أن (جميلًا) باتَ مخصيًّا، ربما تبادر إلى ذهنه بأن الأميرة أمرت بإخصائه، كي تلحقه بعبيدها.

أجابها بصوتٍ ضعيف:

- إن عبدكِ لم يكذب يا سيّدتي، لقد كان (عبد الرحمن العراقي) أفضل فلاحٍ عندي فعلًا، لكنه توفي العام الماضي.

فقالت الأميرة:

- وماذا عن عائلته؟ هل ما زالت موجودة عندك؟

فقال (عبد الله الثقفي):

- لم تبقَ عندي غير زوجته (درّة) فهي عبدة كبيرة، ولم تقوَ على حلب الأبقار حتى، حاولتُ بيعها أكثر من مرّة، لكن لا أحد يرغب بشرائها، أما ابنتاه فقد بعت الصغيرة إلى رجلٍ من جدَّة، يعمل تاجر رقيق في ميناء ميدي في اليمن، والأخت الكبيرة فقد اشتراها منّي أحد النخاولة (الشيعة) ولا أعلم ما حلَّ بها.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

فقالت الأميرة:

- أنا سأشتري منك العبدة العجوز، كم تريد ثمنًا لها؟

فقال (عبد الله) على الفور:

- والله إنها هدية مني للأميرة، ولن ترجع أبدًا.

فقالت الأميرة:

- لقد قبلنا هديتك يا شيخ.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

9

الليلة، ليلة الخامس والعشرين من ديسمبر لسنة 1951، هناك شجرة سرو صغيرة في بيت (ماكينزي) في جبل لبنان، يجلس حولها رجلٌ وامرأة ودمية كبيرة لدبّ، لقد قام الوالدان بتزيين شجرة عيد الميلاد، كما كانت طفلتهما الوحيدة (ماكينزي) تحب أن تكون، كرات مختلفة الأحجام، تتنوع ألوانها بين الذهبي والفضي والأحمر – ألوان العيد الثلاث – تحيطها هالة من الأضواء، تنعكس من المصابيح الذهبية المعلقة بالشجرة، في أعلى الشجرة علَّقت الأم نجمة تشير إلى نجمة بيت لحم، التي دلَّت المجوس إلى الطريق، علَّها تدل (ماكينزي) إلى الطريق، كما علَّق الأب بعض التماثيل لملائكة بيضاء اللون، وأربعة أجراس فضية، تحت الشجرة كانت مغارة الميلاد كالعادة، وضع الوالدان مجموعة صناديق مغلَّفة بورق الهدايا الملوَّن، تحتوي على الهدايا التي تنتظر (ماكينزي) لتفتحها هذه العشية، بالقرب من جبل عرفات، كانت هناك أيضًا هدية موشاة بالزينة، تنتظر أن يفضها الأمير.

أوصلت (نعيمة) (ماكينزي) إلى باب غرفة الأمير، بعد أن سقتها خمرًا مركزًا لتجعلها ثملة، لأطول مدّةٍ ممكنة، راحت (ماكينزي)

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

تـترنح في مشـيتها، ولا تـرى الأشـياء بدقّـة، فخيِّـل إلى (نعيمـة) أن (مكّـة) لـن تشـعر بشـيء، أو ربمـا تنـام مـا أن تـدخل علـى الأمـير، وبعدها لكل حادثٍ حديث.

علـى باب حجـرة الأمـير مـن الخـارج وقـف رجـلان مسـلحان؛ قـام أحـدهما بفـتح البـاب لـ (مـاكينزي) بينمـا أشـار الآخـر بيـدٍ ثبتهـا في الهـواء لـ (نعيمـة) بأن لا تتخطـى هـذه المسـافة، قبـل أن تضـع (مـاكينزي) قـدمها في الـداخل، التفتـت إلى (نعيمـة).. كـان في عيـني (مـاكينزي) كـلام كثـير - لا يُقـال بمسـافة خطـوة - فكـلّ الوقـت المتبقـي لهـا، لا يتعـدى زمـن رفـع قـدمها اليسـرى، ووضـعها داخـل حجـرة الأمـير، ابتسـمت (مـاكينزي) كمـا لم يفعـل يسـوع علـى الخشـبة، وقالـت لـ (نعيمة):

- هل لي بمعرفة اسمكِ قبل أن يكون (نعيمة)؟

فقالت (نعيمة) باكية:

- آربينا.

قالت (ماكينزي):

- تشرفتُ بكِ يا (آربينا).. أنا (ماكينزي).

ودخلت إلى حجرة الأمير.

عـادت (آربينـا) إلى حجرتهـا منهـارة، تـذكرت اليـوم بأنهـا (آربينـا) وأن (نعيمـة) مجـرد قنـاع مهـرج فاشـل، لم يسـتطع محـو وجـه (آربينـا) الحقيقي.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

كان الأمير ينتظر (ماكينزي) مرتديًا قميص نومٍ حريريٍّ أزرق، يصل إلى وسط فخذية، وينتعل نعالًا من جلد حيّة، له شِراك (سير) على شكل مسبحة من الماس (المرصوص) يبدأ الشراك عريضًا من بين إصبعي إبهام القدم وسبابتها، ثم يتفرع إلى فرعين على ظاهر القدم، ويلتفان حولها، كان قميص الأمير شفافًا، وكانت كلّ (أسرار الإمارة) ظاهرة، استقبل الأمير (ماكينزي) عند الباب بيده اليسرى، إذ كانت يده اليمنى مشغولة بحمل كأس البراندي، ثم مشى إلى الوراء، ووجهه لا يفارق وجهها، حتى أجلسها على أريكة بجانب السرير، ثم خاطبها بنغمة رقيقة، وصوتٍ هادئ واثق، مع رشّة حنان مصطنعة:

• بالرغم من أنني رأيتُ نساءً كثيرات، ومن كلِّ الأعراق والبلدان، إلا أنني لم أرَ من هي بحسنكِ وجمالكِ، أو حتى من اقتربت منه، كوني على ثقة، بأن لا أحد يقدِّر هذا الجمال غير الملوك، عليكِ أن تكوني سعيدة، فأنتِ في مكانكِ الذي تستحقينه يا (مكّة).. سأشتري لكِ كلَّ ما ترغبين به من المجوهرات والثياب والعطور، وسنسافر سويًّا إلى كلِّ مكانٍ يخطرُ في رأسكِ الجميل.

تأتأت (ماكينزي) ببضع كلمات، كلّ شيءٍ فيها يرتجف؛ جسمها، فمها، شفتاها، لسانها وصوتها، لم يفهم منها الأمير كلمة واحدة، فمدَّ يده إلى خدها، وأبعد خصلات شعرها الذهبية عن عينيها، وقال لها:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• تنفسي يا (مكّة) فليس هناك ما تخافينه، أنتِ في أكثر الأماكن أمنًا على وجه الأرض، أنتِ معي.

فقالت (ماكينزي):

• أنا خائفة منك.

قال لها الأمير بحدّة:

• هل هذا ما علمتكِ إياه (نعيمة)؟

قالت (ماكينزي):

• (نعيمة) علمتني كلَّ شيءٍ لأسعدك، لكنها لم تعلمني كيف أكون أنا سعيدة؟

قهقه الأمير بسخريةٍ من طريقة (ماكينزي) في الكلام، فهو لم يلتقِ امرأة تتحدث معه هكذا، فأخفى توتره بالقهقهة، ثمَّ أنه أراد أن يجاريها قليلًا، فقال لها:

• وكيف تكونين سعيدة يا (مكّة)؟

فأجابته (ماكينزي) بعفويةٍ طفوليةٍ:

• سأكون سعيدة عندما أعود إلى بيتنا، إلى أمي وأبي ودميتي، أرجوك أيها الأمير، أعدني إلى أهلي، فأنت تستطيع ذلك، أتوسل إليك أن تعيدني إلى أمي.

فأجابَ الأمير مغتاظًا هذه المرّة، إذ لم يستطع تمثيل الطيبة لوقتٍ أطول، وبنبرة صوتٍ تشبه الرعد:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• اسمعي.. يبدو أني كنتُ طيبًا معكِ أكثر مما ينبغي، كيف تجرؤين على الكلام معي بهذه الطريقة؟ هاااا...؟!! أنتِ ملكي، مثل أي حيوانٍ آخر، مثل.. مثل.. هذا الكأس، أفعل بكِ ما أشاء.

ثم رمى الكأس من يده صوب الحائط القريب من (ماكينزي) فتناثر زجاجها أجزاءً صغيرة، سقطت بعض ذراته على شعر (ماكينزي) وتعلقت بثوبها من الخلف،

فقالت (ماكينزي) بيأسٍ من أيقن الموت لا محالة:

• أنت هو الشرّيرُ بن، الذي طالما أخبرنا عنه الأب يواكيم، أنت هو الشيطان.. أنتَ إبليس، صاحب الروح النجسة الشريرة، لن تنفعك قوتك ولا شياطينك من الهرب من الربِّ يسوع وسيـ....

لطمها الأمير بكلِّ قوته وغضبه على وجهها، ففقدت وعيها، سحبها إلى سريره بعنف، مزّق ثيابها، اغتصبها من فرجها حتى اهترأ، فلمّا ضايقته الدماء الخارجة منه، قلبها على بطنها، وراح يكمل اغتصابها من دُبرها، حتى صار الدبر هو الآخر نافورة دم، فتركها،

جلس على كرسيّ قبالتها، وراح يعبُّ ممّا تقع عليه يداه من الخمور الكثيرة الموضوعة خلفه، على خوان حجرته، أخذ الأمير وقتًا طويلًا حتى هدأ، وعاد الهواء يدخل ويخرج من أنفه بسرعته الطبيعية، فنادى الحرّاس، وأمرهم أن يحملوا (ماكينزي) إلى مستوصف الحريم، الواقع داخل قسم السراري، وهو عبارة عن مستشفى صغيرة، ثم نادى خادمه (مسعود التكروني) وأمره بقتل (نعيمة) وإحراق جثتها.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

طرق (مسعود) باب (نعيمة) فلم تفتح له، ممّا اضطره إلى كسره، فوجد (نعيمة) مستلقية بهدوء، على سريرها الغارق بدم شريان يدها اليسرى، المقطوع بشفرة موسى حاد، كانت (نعيمة) ما زالت ممسكة بالشفرة بيدها اليمنى.

بعد يومين، وصلت رسالة من إدارة مستوصف السراري إلى مكتب الأمير، مكتوبٌ على غلافها باللون الأحمر:

"سري للغاية وعاجل جدًّا"

فتح الأمير الرسالة، فوجد بداخلها تقرير مديرة المستوصف الطبيبة الروسية (إيلينيشنا ليفوشكينا) وقد كتبت تقول:

تقرير عن الحالة الصحية للعبدة (مكّة)..

عند وصول الجارية إلى المستوصف بعد منتصف الليل، المصادف 25 ديسمبر لسنة 1951 عند الساعة 00.37 صباحًا، قامت الطبيبة (أولغا كرافشينك) باستلامها، وقد قامت فورًا بإجراء عمليتين جراحيتين هما:

تفميم القولون Colostomy

تفميم اللفائفي Ileostomy

تم فيهما استئصال أجزاء من الأمعاء، مع صنع فتحة فم أو ثغر Stoma في جدار البطن لتسمح بالتخلص من البراز، وقد تم تحويل اتجاه البراز ليخرج من ذلك الفم المصطنع وتم تجميعه في كيس Pouch متصل بالفم وهو الآن معلق خارج البطن، كون مجرى

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

البراز ممزق لدرجة كبيرة مع المصرة الشرجية، بعد عشرين ساعة، قمنا بعمل جراحي آخر، بقيادتي أنا الطبيبة (إيلينيشنا ليفوشكينا) لأن هذه الحالة نادرة ولم يتم تعرضنا إلى مثلها من قبل، العملية الجراحية التي أجريتها كانت عملية ترميم (ترقيع) المهبل الذي وصل التمزق به حدًّا كبيرًا، وبعد هذه العمليات لا يسعنا سوى الانتظار، لتلتئم جروحها ويستقر وضعها الصحي، لنتمكن من التشخيص الصحيح، لأنها تعرضت إلى تهتك خطير وكبير في المناطق التناسلية، مما أدى إلى إنتانات شديدة (تسمم الدم أو تعفن الدم) ومن المؤكد أنها ستحتاج إلى أكثر من عمل جراحي، لكنها ستحتاج لمدة أسبوعين إلى شهر، لاستئناف العمليات الجراحية التكميلية وذلك لحين استقرار وضعها الصحي، لأن الجراحة التي تمت لها كبيرة وعلى عدة أماكن، خلاصة الحالة:

- من الناحية التناسلية: تبين وجود تمزق في المهبل من الناحية السفلية، يصل حتى المعدة، وباتجاهين عند المستوى x5 و x7 مع وجود حالة إنتانية شديدة المستوى، وتمزق تام بغشاء البكارة.
- من الناحية العامة: وجود كدمة رضّية وتورم شديد بالصدر في جانبه الأيمن، والخد الأيمن وأجفان العين اليمنى وكدمة على الخد الأيسر، مع احمرار صيوان الأذن الأيمن.
- من الناحية النفسية: تكاد تكون غير واعية بمحيطها، بسبب وجود حالة نفسية ذات منشأ رُهبي.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

التقييم النهائي:

بناءً على الفحص والصورة تبين وجود تمزق من الدرجة الثالثة مع تمزق المعصرة الشرجية عند الساعة 12 تقريبًا، وهذا ناجم عن إدخال جسم غليظ كالقضيب أو ما شابه في منطقة الفرج والدبر.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

10

بكت (درّة) بوجع منفيٍّ فقد أمه للتو، عندما احتضنت ابنها (جميل).. لم تكن دموعها دموع الفرح، بل دموع تأريخٍ طويلٍ من الشقاء والفقد والألم، ردَّ فعل (جميل) كان باهتًا، وكأنه يحتضن امرأةً غريبة، لا يربطه بها شيء، حتى الشفقة التي نشعر بها تجاه المساكين، كانت غائبة عنده، حدث هذا المشهد في قاعة القصر الرئيسية، عندما أحضر الحرس (درّة) من مالكها السابق (عبد الله الحجازي الثقفي) مع وثيقة تثبت تحويل ملكيتها منه إلى ملكية الأميرة (فاطمة) حدث اللقاء بعد أن طلبت الأميرة من إحدى إمائها مناداة (جميل) للقاء أمه.

كانت (أنيسة) مشغولة مع الأميرة (العنود) في غرفةٍ ملاصقة للقاعة، حينما سمعت نشيج بكاء (درّة) فجاءت لتعرف ما الأمر!

اعتقدت الأميرة (فاطمة) بأن (أنيسة) لا تمتلك دموعًا، لأنها لم ترها يومًا تبكي، لكن ما لا تعلمه الأميرة، أن (أنيسة) كانت تجمع دموعها لسنوات من أجل هذا اليوم، فما أن ابتدأت (أنيسة) بالبكاء، لم يستطع أحد إيقافها، استمرت تبكي، حتى أغمي عليها، ودخلت في غيبوبة طويلة.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

الملفتُ في الأمر أن الأميرة (فاطمة) رغم كلِّ قسوتها، شاركت (أنيسة) البكاء، وبقيت معها طوال مدّةِ غيبوبتها، وكأنها هي خادمة (أنيسة) وليس العكس.

فزّت أنيسة من غيبوبتها وهي تصرخ:

• ونيسة.. ونيسة.. ونيسة.. ونيسة..

أمسكت الأميرة (فاطمة) برأس (أنيسة) وضمّتها إلى صدرها، قائلة:

• لا بأس يا (أنيسة).. إنه كابوس، أنتِ معي الآن، لا عليكِ..

سحبت (أنيسة) رأسها ونظرت إلى الأميرة نظرة بحث واسترجاع للذاكرة، رأت خلالها وجودها في غرفتها على سريرها وجلوس الأميرة بقربها، ثمَّ جفلت فجأة جفلة قوية، اهتزَّ لها بدنها كله وقالت:

• لا يا سيدتي، لم أكن أرى حلمًا، بل رأيتُ (ونيسة) حقًّا، رأيتها تحتضن العبد (جميل) وتبكي.

فقالت الأميرة مستغربة:

• ونيسة؟! من هي (ونيسة) يا (أنيسة)؟

قالت (أنيسة) وقد عاودت البكاء:

• (ونيسة) أختي التوأم يا سيدتي.

شهقت الأميرة (فاطمة) وبحركةٍ لا إرادية وضعت يدها اليمنى على فمها، ثمَّ سألت (أنيسة):

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• هل أنتِ متأكدة يا (أنيسة) أن المرأة التي شاهدتِها مع (جميل) هي أختكِ (ونيسة)؟

فقالت (أنيسة):

• بالطبع يا سيدتي، لقد تحملت كل المصائب، وأبقيتُ نفسي قوية، على أمل أن أراها يومًا، بعدما باعنا مالكنا إلى رجلين مختلفين.

فقالت الأميرة:

• إن المرأة التي شاهدتها تدعى (درّة) وهي أم (جميل).

فقالت (أنيسة):

• أنا متأكدة أنها هي (ونيسة) فهل تسمحين لي بالذهاب إليها؟

قالت الأميرة:

• بل نحضرها هنا.

جاءت (درّة) تتحرك ببطء، تسحب قدميها بثقل، محنية الظهر وكأنها حطابٌ عجوز قد جاوز الثمانين وما زال يحمل الحطب، ركضت إليها (أنيسة) وأحاطتها بذراعيها ثم ضمتها بقوة، وهي تقبّلها لا على التعيين، كانت (أنيسة) تبكي بحرقة، فلم تعد تميّزُ غير عطر أختها الذي تعرفه من بين كل عطور الدنيا، حدقت (درّة) مذهولة بتعابير هذا الوجه الباكي، الذي تحول إلى أنف وراح يشم رائحتها النتنة بحبٍّ وسعادة، فعاد إليها صوت شبابها وصرخت:

• أنيييسسسسة....

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

(ونيسة، وأنيسة) توأمان.. (أنيسة) أكبر من (ونيسة) بنصف ساعة، حتى السنة التاسعة من عمرهما - السنة التي باعهما مالكهما إلى تاجرين مختلفين- لم يستطع والدهما معرفة (أنيسة) من (ونيسة).. الأم هي من كانت تميّزهما بسهولة، كانتا تمثلان على أمهما أنها مخطئة في معرفتهما، لكن الأم كانت تكتشف بغريزتها أنهما كاذبتين، فقط لمرّة واحدة استطاعتا خداع أمهما، حينما كانت تساعدهما على الاستحمام، في (طشت) عتيق من نحاس، مثقوب من جانبيه بثلاث ثقوب، وأخطأت وحمّمت (أنيسة) مرتين، وتركت (ونيسة) بلا حمّام، عمرهما الآن اثنتان وستون عامًا.. (أنيسة) تبدو ملائمة لعمرها، وربما تبدو أشب من ذلك بخمس أو ست سنوات، سمارها فاتح، وشعرها بني، يميل إلى اللون الأحمر، وخالٍ من الشيب -بفضل الحنّاء البنية التي تستخدمها باستمرار- عيناها سوداوان واسعتان، تحيط بهما هالتان بسوادٍ خفيف، يمتدان حتى أنفها الشامخ كجبل أحد، هناك بعض التجاعيد القليلة في جبينها، وحول فمها الواسع، لكن تكثر تلك التجاعيد بغزارة عند أسفل فكّيها، حتى آخر الرقبة عند صدرها،

أما (ونيسة) فالأمر مختلف، لم تعد تشبه (أنيسة) بشيء، ربما لو أننا أخذنا صورة لشخصٍ وهو في العشرين من عمره، وقارنّاها مع صورته وهو في الثمانين، عندها يمكن لنا أن نتخيّل وجه الشبه المتبقي بين الأختين التوأمين.. (ونيسة) ذات بشرة سمراء داكنة، تشبه سكان

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

أفريقيا الملونين، لولا شفتاها العربيتان، أنفها مقوّس كما هو حال ظهرها، لم تبق الأيام على شعرة سوداء واحدة في رأسها، ولأنها أمة، ولا يحق لها ارتداء خمار الرأس فقد بدا منظر رأسها بشعرها الأبيض شبيهًا بقطعة جلدٍ عليها بقايا صوفٍ لنعجة قذرة، عيناها غلبت عليهما التجاعيد الكثيرة، وذاب لحم خديها، وفمها أصبح أوسع مما هو عليه في الحقيقة، سألت (ونيسة) أختها (أنيسة):

- كيف تمكنتِ من معرفتي يا (أنيسة)؟

فأجابتها (أنيسة):

- لأني كل ليلة، منذ أكثر من خمسين عامًا، قبل أن أنام، أسأل نفسي؛ كيف يا ترى أصبح وجه (ونيسة) بعد كلِّ هذه السنوات وهذا الشقاء؟ لقد تخيلتكِ بألف وجهٍ ووجه، تخيلتكِ سَرية رجلٍ غني، وما زلت شابة ولا يمكنكِ أن تتعرفي على عجوزٍ مثلي، تخيلتكِ عبدة تكنسين الأرض حافية وتخرجين الماء من البئر، وتحملينه بعيدًا حيث خيمتكِ في الصحراء اليباب، من كلِّ حياة، إلا عيني الله وقلبك، تخيلتكِ أُمًّا وجدَّة وطفلةً صغيرة ماتت في التاسعة.

أمرت الأميرة (فاطمة) بأن تنتقل (ونيسة) إلى حرم القصر، وكتبت وثيقة تثبت أنها قد أعتقت (ونيسة) وأنها حرّة في المغادرة متى شاءت، وأنها أيضًا مرحبٌ بها بالبقاء في القصر مع (أنيسة) حتى آخر حياتها، ثمّ سلّمت الوثيقة إلى (أنيسة) فخرّ الأختان على قدمي الأميرة تقبلانها، وتدعوان لها بما يعرفان من الأدعية الجيدة.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

قامت (أنيسة) بأخذ (ونيسة) إلى الحمّام، وأمرت أربع جاريات بتنظيفها، وجهزت لها ثيابًا فاخرة من ثيابها، وحليًّا ومجوهرات، كما أعدت لها دارًا واسعة لصيقةً بدارها، وأثثتها بأثاثٍ لا يختلف كثيرًا عمّا هو موجودٌ عندها.

باتت (أنيسة) تلك الليلة مع أختها (ونيسة) لكنّها لم تنس واجبها تجاه الأميرة (فاطمة) التي طلبت منها الانصراف والاهتمام بأختها، إلا أن (أنيسة) أصرت على البقاء، وممارسة عملها كالمعتاد، وأكملت طقوسها الليلية مع الأميرة، ولم تتركها حتى غفت، بعدها توجهت إلى (ونيسة) وجلستا تتحدثان طوال الليل، وتستذكران طفولتيهما ومقالبهما، لكن الواقع فرض عليهما المرور بأيام عبوديتهما الطويلة، وما جرى عليهما خلال تلك السنوات، ذكريات العبودية تلك ابتدأت بسؤال (أنيسة) عن اسم (درّة) الذي تحمله أختها (ونيسة).. فقالت (ونيسة):

• عندما باعني مالكنا الأول إلى تاجر العبيد المكّي، قام بوطئي في أول ليلة لي معه، وكان شبقًا جدًّا، حيث أنه كان يطأ أكثر من ثمانِ جوارٍ في ليلةٍ واحدة، وكان كلما جامعني يخبرني بالجملة ذاتها: "فرجكِ يا (ونيسة) يشبه الدرّة بالنسبة لباقي فروج الإماء" لأني كنتُ بكرًا حينها، وصغيرة وخائفة، وأتركه يفعل بي ما يشاء، وكذلك لأن الإماء اللاتي كنّ معي، كنّ أكبر منّي سنًّا، وقد مررن بأكثر من مالك، بعدها قال بأنه يريد الاحتفاظ بي لنفسه، وأنه

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

سيسميني (درّة) وأمرني بأن أنسى اسمي القديم، وأنتِ تعرفين أن الاسم لن يعود له قيمة، إن كانت حاملة الاسم نفسها لا تملك جسدها، وهكذا أصبحتُ درّة حتى وصلتُ إلى مكّة، وباعني لأول من أسمعه صوت الجنيهات، بعدها باعني الرجل المكي - عندما أصبح عمري في العشرين - إلى (عبد الله الثقفي) هذا، وكان شابًّا وأراد له فراشًا ينام عليه ليلًا كي لا ينام على الرمال في طريق عودته إلى المدينة، كان (عبد الله) قاسيًا، يأخذ فقط ولا يترك حتى فتات ما يقع منه، كنّا نبيتُ جوعى ونحن نعد له أجود الطعام، يأتي على المطبخ، ويشتمُّ أيدينا وأفواهنا وأنفاسنا، خشية أن نكون قد سرقنا شيئًا وأكلناه، استخدم معنا طريقته في تكثير الماشية، كان يزوّج الإماء من العبيد، كي ننجب له عبيدًا آخرين، وإن حدث ومرت سنة دون إنجاب، فإنه يبيع العبد ويبقي على الأمة، ويزوجها من عبدٍ آخر، ولولا أن الله كان رحيمًا بي، وأخذ مني تسعة أبناء، لأورثت العبودية إلى اثني عشرة آخرين، مات لي 5 أبناء أثناء حملي بهم من شدة الجوع، وصعوبة العمل، ومات لي أربعة آخرين؛ واحدٌ منهم بعد الولادة مباشرة، وثلاثة منهم قبل سنّ الرابعة.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

11

عند الضحى، في اليوم التالي للقاء التوأمين، بعدما أكملت الأميرة (فاطمة) وجبة إفطارها، طلبت من (أنيسة) أن ترافقها في جولة في البستان، بالطبع وافقت (أنيسة) وأبدت سعادتها لمرافقة الأميرة، مع أنها لم تنم في الليلة الماضية، فقد قضتها في أحاديث وتنهدات وبكاء وشجن مع أختها (ونيسة) وما أن طلع بياض النهار حتى تركت أختها لترتاح، وتوجهت هي للقيام بأعمالها اليومية مع الأميرة، كالإشراف على طعامها وحمّامها وزينتها الصباحية، كانت تُمنّي نفسها أن تتركها الأميرة وقت الضحى، ككل يوم، فتعود لسريرها وتأخذ غفوة قصيرة، تستطيع بعدها مزاولة عملها، فهي لم تعد صغيرة، وبحاجة إلى الراحة أكثر من قبل، لكن هي لم تنس أبدًا أنها عبدة - عبدة بإرادتها، إن كان رفض العتق خيارًا - ولا يحق للعبيد أن يقولوا "لا" لأسيادهم، ولا لمرّة واحدة في حياتهم،

خرجت الأميرة ومربيتها، بعدما منعت الأميرة الحراس من مرافقتها، فهي لن تخرج خارج القصر، والقصر مؤمنٌ من الخارج بصورةٍ أكثر من جيدة،

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

هناك حقيقة في البلاد الشرقية، وهي خوف الناس من أماكن تواجد حكامه، فبمجرد شراء أحد الأمراء لأحد القصور في منطقةٍ معينة، تصبح تلك المنطقة، منطقة مخيفة، ولا يرتادها المواطنون، ويعمل أصحاب سيارات الأجرة على عدم المرور من الشارع الذي يقع فيه ذلك القصر، تلافيًا للمساءلة والاشتباه بهم، والسين والجيم ووجع الرأس، مع الحراس الذين لا يقبلون بعذر، ولا يفهمون لغة الشارع، فهم لديهم لغتهم الخاصة، وتفكيرهم الخاص دومًا.

شاهدت (أنيسة) العبد (جميل) على رأس إحدى النخلات، يلتقط بعض الرطب الناضج من أعذاقها، ويضعه في سلّة من خوص النخيل - ورق النخيل - يعلقها على إحدى الكَرَبَات (الكَرَبَة: قاعدة سعفة النخلة المتبقية بعد قطع السعفة اليابسة) القريبة منه، ضغطت (أنيسة) على يد الأميرة، وأشارت لها بالصمت، ثم سحبتها وراحتا تتسللانِ نحو النخلة، حتى أصبحتا تحتها تمامًا، كان المنظر مغريًا للأميرة و(أنيسة) على حدٍّ سواء من تحت النخلة، فقد كان ظاهرًا من تحت الإزار، ذَكَرُ (جميل) الأسود الترابي الضخم، وخصيته المتبقية تهتزُّ كلما قطعَ (جميلٌ) رطبة، كانت خصيته ترقص مثل امرأةٍ وحيدةٍ تحت القمر، لم ينتبه (جميل) لما تحته، وراح يلتفُّ حول النخلة، والأميرة تتابعه برغبتها المتقدة، حتى لم تعد تطيق النظر أكثر، فهمست لـ (أنيسة) بشيء، وتركتها ورحلت تجاه القصر، نادت

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

(أنيسة) (جميل) وأمرته بالنزول، فلما وقف أمامها مطرقًا، سألته عن أمه، فقال:

- لا أعلم أين ذهبت، عندما استفقت لم أجدها في سريرها.

فقالت (أنيسة):

- ولماذا لم تبحث عنها؟

فقال (جميل):

- خفت أن أتأخر على مسؤول العبيد، فيجلدني ويمنع عني الطعام.

فقالت له:

- لن يجلدكَ أحد بعد اليوم، ولن تجوع، لأني سأقوم بحمايتك، كما حميتُ أمكَ وأعدتُ لها حريتها، أمكَ يا (جميل) أختي التوأم، وهذا يعني أني خالتك، هل فهمتَ ما أقول؟

كان (جميل) واقفًا مثل نصبٍ تذكاري من رخام لرجلٍ من العصر الحجري، ينتظر أوامر (أنيسة) كي يطيعها، أدركت (أنيسة) ذلك، فقالت له هذه المرّة:

- لقد عملتُ طيلة حياتي كي أحظى بمكانة لدى الأميرة، وقد حظيتُ بما أردت في نهاية المطاف، صحيح أني عملت أقذر وأبشع الأشياء كي أصل إلى هنا، لكنني لستُ نادمة على شيء، فنحن نعيش في غابة، البقاء فيها ليس فقط للأسد القوي، بل للثعلب الضعيف الماكر أيضًا، أعلم جيدًا أنك لا تريد أن تفهمني، مع أنك

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

تستطيع ذلك، لأنك قنعت بما أنت عليه، وكلُّ ما تريد هو أن لا يجلدك أحد، وأن تنام وأنت لست جائعًا، كي تستيقظ وأنت قادر على تسلق النخلة، ولا تتعرض للجلد.

ثمَّ أنها سألت (جميل) بنبرة من يريد أن يتقيأ من شدّة القرف:

- ألا تتمنى أن تكون حرًّا؟

فقال (جميل):

- وماذا أفعل لو أصبحتُ حرًّا؟ من سيطعمني حينها؟ أين أنام؟ من سيخبرني بما أفعل طوال الوقت؟ لا، لا أريد أن أكون حرًّا، وإن أصرّت سيّدتي أن تعتقني وتطردني من هنا، فسأقتل نفسي حتى وإن ذهبتُ إلى النار.

أمسكت (أنيسة) بيده وسحبته بقوّة، ثم تركته وراحت تمشي أمامه، فتوقف (جميل) بمكانه لا يدري ما يفعل، فالتفتت إليه (أنيسة) بجسمها كله، وقالت له:

- اتبعني.

فتبعها (جميل) حتى أدخلته إلى حمّامها الخاص في حجرتها، وأمرته بالجلوس على أرضيّة الحمّام، جلبت له شفرة حلاقة، مع ثلاث علب شفرات جديدة، ووضعت الصابون على ذقنه، وقالت له:

- اسمعني جيدًا، حتى لا تفقد رأسك وتُلحقنا أنا وأمك بك، أنت لستَ خصيًّا، هل تعلم ذلك؟

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

فقال (جميل):

• نعم اكتشفت ذلك مؤخرًا ولا أعرف ما الذي حدث.

فقالت (أنيسة):

• الحمد لله.. أنك تعرف شيئًا أخيرًا، اسمع، إن اكتشف الأمير أنك لستَ خصيًّا، وقد اطلعت على زوجته، فسيقتُلك لا محالة، عليك أن تحلق ذقنك وشاربك، كل يوم وأكثر من مرّة، إن استطعت، حتى تشبه العبيد المخصيين الآخرين، هل فهمت هذا؟

فأجاب (جميل):

• نعم.

فقالت (أنيسة):

• الآن اسمعني جيدًا، الأميرة تعرف أنكَ لست خصيًّا، وستساعدنا بإخفاء هذا الأمر عن الأمير، بشرط أن تقوم بإسعادها، متى ما طلبت منك ذلك، هل فهمت ما أقول؟

فقال (جميل):

• تقصدين أن أقوم بـ...

وسكت (جميل) ثم راحت يداه ترتعشان، ورأسه لم تعد ثابتة تحت يدي (أنيسة) فأبعدت الشفرة على الفور، وأمسكت به من ذقنه، وحدقت في أعماق عينيه وقالت:

• نعم.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

ثم أكملت حلاقة ذقنه وهي صامتة، وعندما أمرته بالاستحمام وأرادت أن تخرج، قال لها:

- أنا خائفٌ يا خالة.

فعادت (أنيسة) واحتضنته وهي تضحك وتقول:

- أنت لستَ غبيًّا إذًا كما كنتَ توحي إليَّ، لماذا كنتَ تريدني أن أتصور أنك أبله؟

فقال (جميل):

- لأني تعلمت أن الغباء هو الشيء الوحيد الذي أبقاني على قيد الحياة طول هذه المدّة، السادة الأحرار يخشون العبد الذكي ويتخلصون منه بسرعة، بينما العبد الغبي يروق لهم جدًّا، تعلمتُ ذلك في بيت التاجر البحريني، فقد كان عمري حينذاك ثلاثة عشر عامًا، وكنتُ أعتقد بأني إن كنتُ ذكيًّا فإنني سأعجبه، لكني تعرضتُ إلى الجلد، حتى كان كلَّ فترة يغير سوطه بعد أن يبلى على ظهري، حدثَ أن رقَّ لحالي عبدٌ عجوز، وأخبرني بأن ذكائي هو سبب شقائي، وعلمني كيف أكون غبيًّا، وعندها فقط نجوت، لم يقل لي العبد العجوز أن أدعي الغباء، بل قال لي: "كن غبيًّا" فأصبحتُ غبيًّا، وعندما وجدتُ أن الغباء جيدًا إلى هذه الدرجة، أحببته، لأنه جلب لي الراحة والسعادة، لكنني بعض الأحيان أفهم الأشياء وعندما أفهمها أحزن.

فقالت له (أنيسة) بعدما تنهدت بآهةٍ طويلة:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• حاول أن تفهمني الآن يا (جميل).. أنا كنتُ مثلك، مثلك تمامًا، لكني مع تقدم العمر أدركتُ أننا، أقصد نحن العبيد، من نُسهِّلُ الأمر للأحرار كي يستعبدوننا، لأننا في داخلنا نعتقد بأن الله هو من قدَّر لنا أن نكون عبيدًا، وقدَّر للآخرين أن يكونوا سادتنا، فاستسلمنا لهذه الخديعة، عليك أن تعرف أن لا خلاص لنا من العبودية، لكننا نستطيع تخفيفها بقليلٍ من الدهاء، والآن أتركك لتغتسل جيدًا، لأدخلكَ على الأميرة، وافعل لها ما تأمرك، ولا تنس أن تكون غبيًّا معها، ومع الجميع، إلا معي ومع أمك.

بعد أن انتهى من الاغتسال، ألبسته إزاره الرث نفسه، وأمرته بأن يتبعها وأدخلته على الأميرة، ثمَّ ذهبت إلى حجرة أختها كي تخبرها بالأمر، فلم تجدها هناك، فراحت تبحث عنها في أرجاء القصر، وتسأل الإماء والعبيد، حتى أخبرها أحد الحراس الذين جلبوها بالأمس، بأنه قد رآها عند حظيرة الحيوانات، وجدتها (أنيسة) هناك، تلبس ثيابها الجديدة، وتطعم الأبقار، فجرَّتها بقوة ونهرتها:

• ماذا تفعلين يا مجنونة؟

فقالت (ونيسة):

• بحثت عنكِ فلم أجدك، فحدثت نفسي قائلة: "لأجد لي عملًا أقوم به كي أُسعِد الأميرة، حتى ترضى عنِّي".

فقالت لها (أنيسة):

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• لا تفعلي شيئًا مستقبلًا حتى تُعلميني أولًا، ولا علاقة لكِ بالأميرة، فلديها من يسعدها.

وأخذتها إلى حجرتها ثم أخبرتها كل شيء، وأوصتها بالتحدث مع (جميل) وتعليمه أشياء لا يعرفها أحدٌ عن مزاج الأميرة وشهوتها، وراحت تخبرها بتلك الأشياء، وتوصيها بنقلها بدقة إلى (جميل).

عند العصر خرج (جميلٌ) من حجرة الأميرة، وذهب إلى خالته ثم أخبرها بأن الأميرة تريد لقاءها، أمرته (أنيسة) بالبقاء عند أمه ريثما تعود، وتوجهت من فورها إلى الأميرة، فوجدتها تتحدث بالهاتف، وكانت تبتسم ووجنتاها متوردتان كزهرة الساكورا (زهرة الكرز اليابانية) وما هي إلا لحظات حتى أغلقت الهاتف، وارتمت في حضن (أنيسة) وقبّلتها ثم قالت لها:

• أريدكِ أن تطعمي (جميل) جيدًا فقد أنهكته كثيرًا، جعلته يعاشرني خمس مرّات متتالية، وأريدكِ أن تخبئيه منذ الليلة، فقد كلمني الأمير توًّا، وأخبرني بأنه سيكون معنا قبل الفجر.

فقالت (أنيسة):

• ليس من عادة الأمير أن يشتاق إليكِ بهذه السرعة يا سيدتي.

قالت الأميرة:

• أخبرني أن طبيبه أمره بالابتعاد قليلًا، وأخذ عطلة قصيرة، ولم يجد أحبُّ إليه من التواجد معي، لكنّي أشكُّ بالأمر، أعتقد أنه ملَّ من سراريه، واشتاق إلى أفخاذ الحرّة، أو أن الأمريكيين والإنجليز قد أغاظوه بإعادة طلب إلغاء العبودية.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

12

وصل موكب الأمير مع النداء الأول لصلاة الفجر، وقد سدَّ طابور سيارات موكبه الفخم مدخل مسجد قباء، نزل الوفد المرافق بأمرٍ منه وتوجه إلى المسجد من فوره، أمَّ الأمير المصلين ذلك الصباح بصعوبة، بعد أن تدافع الناس من رجال دين وأصحاب نفوذ ومواطنين عاديين، لتقبيل يد الأمير وكتفه وإبداء ضنوف الطاعة والولاء والتملق.

داخل القصر وجد الأميرة (فاطمة) بانتظاره في حجرتها، وقد تزيَّنت له وارتدت أجمل ثيابها الداخلية التي تظهر كلَّ مفاتنها، تهيأت له الأميرة بصورةٍ مبالغ فيها، وكأنها تخفي شيئًا، لكنها بالطبع عللت تصرفها هذا - بعد أن سألها الأمير الماكر عن سبب كلِّ هذا الاهتمام المفاجئ - بأنها تعلم جيدًا شدَّة شبقه بالنساء ورغبته العارمة في ممارسة الجنس بعد سفرة برية طويلة.

عاشر الأمير زوجته وكأنه كان صائمًا وأفطر، استغرقت معاشرته لها في حدود نصف الساعة وهو رقمٌ قياسي جديد يضاف إلى سجل الأمير الجنسي، بعد أن بقيا مستلقيين على السرير لفترة - لالتقاط الأنفاس - أرادت الأميرة أن ترتدي ثيابها، فمنعها الأمير من ذلك،

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

استجابت الأميرة لأمره دون أن تسأل عن السبب، وعادت واستلقت بجانبه على السرير ثم حاولت الدخول تحت الإزار، فرفض الأمير الفكرة، وأمرها بالبقاء عارية، سواء أرادت التدخين - كما هي عادتها بعد كل معاشرة - أو الاستلقاء،

إنه يريدها أن تبقى عارية، نهض الأمير عاريًا هو الآخر، وبحث في درج المشروبات الزجاجي عند ركن حجرة الأميرة الواسعة، عن شيء يشربه، وجد زجاجة (كونياك) فرنسية لم تزل بِكرًا، فقام بفضِّها، وأخذ كأسين من الكريستال، قام بملء إحداهما بمقدار قياسي وقدمه إلى الأميرة، بينما صبَّ في كأسه ثلاثة أضعاف الكمية الطبيعية، بعد أن طرق كأسه بكأس الأميرة وتمنى لها الصحة، أدار عجيزته الكبيرة صوب الأميرة، وراح يمشي حتى زاوية الحجرة المقابلة للبار، حيث الكرسي الهزّاز وحركه قليلًا تجاه الأميرة ثم جلس قبالتها، أخذ رشفة كبيرة من الكونياك، امتعض لها وجهه قليلًا، ثم قال:

- جمعنا أبي الشيخ - أنا وكل إخوتي الذكور - صباح الأمس؛ إنه مريضٌ جدًّا ويبدو أنه سيموت قريبًا، أرادنا أن نسمع وصيته ونتعهد على العمل بها، وتعهدنا له بذلك وأقسمنا على السمع والطاعة.

فقالت (فاطمة):

- وماذا كانت وصيته؟

قال الأمير بعد أن ارتشف رشفةً ثانية من كأسه:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• تمهلي فسأخبركِ بكلِّ شيء، أنا أتيتُ لهذه الغاية فقط، لأخبركِ بما تعهدت به العائلة للشيخ وأقسمت على ألا تحيد عنه.

ثم سكتَ وارتشف ما تبقى من كأسه دفعةً واحدة، قامت الأميرة (فاطمة) من سريرها بتثاقل وحركات مغرية كقطة كسلى، وتوجهت نحو البار ثم أحضرت له زجاجة البراندي، والأمير يراقب جسمها وهو يهتز من ثقل أنوثتها وغنج مشيتها وهي تتعمد أن يرى ردفيها من الخلف، ثم أقبلت بالزجاجة وانحنت عليه حتى لامس نهداها أنفه، ملأت له كأسه وجلست أمامه على حافة الكرسي، أشعلت سيجارة وارتشفت جرعة من كأسها التي ملأها لها الأمير، قال الأمير وعيناه على سرتها المرصعة بياقوتةٍ حمراء:

• أوصى الشيخ أن يكون الحكم من بعده لأولاده جميعًا، من أخي الأكبر حتى أصغرنا عمرًا، الأخ بعد الأخ حتى يستقيم حال المملكة ويخضع الزمن لأسرتنا، بهذا سأكون وليًا للعهد قريبًا، وبما أن أخي الأكبر (مسعود) مريضٌ هو الآخر، فسأكون أنا الشيخ الفعلي للبلاد، حتى مع كون أخي الأكبر جالس على العرش.

قالت (فاطمة) بغمزة:

• لكن أخاك الأكبر (سليم) كالحصان، لا يشكو من شيء!

فقال الأمير:

• هناك أسرار كثيرة داخل الأسرة محرمٌ على النساء معرفتها، وعلى أي حال لا تقاطعيني، ودعيني أخبركِ ما جئتُ من أجله.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

عضَّت الأميرة على شفتها السفلى، في إشارة إلى الامتعاض الممزوج بالدلال.

قال الأمير وهو يفهم تمامًا ما تحاول (فاطمة) إيصاله إليه:

• حدثنا والدي عن تأريخه وحروبه ومشواره الطويل، من أجل بسط سيطرته على كلِّ أراض نجدٍ والحجاز، وكيفية تخلصه من خصومه الأشداء، أصحاب الماضي العريق والنسب الشريف، وذوي الدهاء السياسي والقوة والجند والمال، وهو الذي كان رجلًا عاديًّا، ومن نسبٍ متواضع يعيش في بيتٍ حقير من ثلاث غرف، في الكويت مع أبيه، قال لنا: السرُّ هو في كثرة زيجاته من بطون العشائر وأصحاب المقامات ورجال الدين، فلقد تزوج من اثنتين وثلاثين امرأة، ماعدا ما ملكت يمينه من جوارٍ وسرارٍ ومحظيات، وأنجب أكثر من سبعين ولدًا وبنتًا، أخبرنا كذلك عن وجود نسلٍ له في الكويت، من نساء لم يعد يذكر أسماءهنَّ، وأن له أولادًا وأحفادًا هناك، في القبائل البدوية، غير مسجلين في سجلات الدولة، أمرنا بإحضارهم وتكريمهم، وتسليمهم مسؤوليات بالإمارة، حتى تكون أسرتنا متحكمة في كلّ مرافق الدولة، كما أنه أوصانا وأكد علينا بأن نتبع سنته، أن نتزوج قدر ما نستطيع، حتى نكثر من نسلنا ونحد من نسل باقي الناس، إلا أن نتكاثر ونصبح أكثرية، لنضمن البقاء في الحكم إلى الأبد.

فقالت الأميرة (فاطمة):

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• طالما كان الشيخ حكيمًا.

فقال الأمير:

• لكن حكمته قد لا تروق لك أنتِ بالذات.

قالت (فاطمة) على الفور وبلهجة من نفد صبره:

• ماذا تقصد؟

فقال الأمير، وقد وقف وأخذ يرتدي ثيابه:

• لقد أمرني والدي بشكلٍ مباشر، في الحقيقة إنه وجه أمره كذلك لإخوتي؛ الأمير متعب، والأمير عبد الله، والأمير سلطان، لكنه كان يقصدني أنا أكثر، لأني سأكون وليًّا للعهد، أمرنا نحن الإخوة الذين لم ننجب ذكورًا حتى الآن، بتطليق كلِّ زوجاتنا، والزواج فورًا من أربع أميرات لكل أمير، ولقد طلقت زوجاتي الثلاث قبل أن آتي إلى هنا، وأنتِ يا (فاطمة) طالق.. طالق.. طالق.

ثمَّ أنه أضاف، وكان قد أنهى ارتداء ثيابه:

• أعلم أن الأمر لن يسيئكِ كثيرًا، فهذا ما كنت تتمنينه - في قلبكِ على الأقل - لكني أحببتُ أن أراكِ عارية وأنا أطلقكِ، لأخبركِ بأنكِ لم تكوني أبدًا أكثر من عبدة عندي، وستبقين حتى آخر عمركِ كذلك.

فقالت (فاطمة) بهدوء لم يتوقعه الأمير، بعد أن وقفت قبالته وفتحت فخذيها حتى بان فرجها:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• أتـرى هـذا الفـرج؟ سـأدخل فيـه قضـبان الرجـال مـن كـلِ الألـوان، لكـني لـن أكـون بقـذارتك، سـأتزوج مـنهم الواحـد بعـد الآخـر، حتى لا تستطيع أن ترفع نظرك بين إخوتك.

ضحك الأمير عاليًا وقال لها، بالهدوء ذاته الذي كلمته به:

• أنـتِ تعـرفين قـوانين العائلـة، لا يحـق لـكِ الـزواج إلا مـن أمـير، وكـلُّ الأمـراء الـذين أعـرفهم متزوجـون مـن أربـع زوجـات، فمـن ذا الـذي يطلـق إحـداهن ليتـزوج مـن مطلقـة، ويـترك الأمـيرات الأبكـار الكواعـب؟! ثمَّ أنـكِ نسـيتِ شـيئًا؛ مـا دمـتِ قـد أنجبـتِ مـني، فـلا يحق لـكِ الإنجـاب مـرّةً أخـرى، يتعـين عليـكِ أن تأخـذي ذلـك المصـل الـذي تعـرفين، المصـل الـذي يجعلـكِ عـاقرًا قبـل أن تتمكـني مـن الـزواج، وأي أميرٍ أحمق يرغب بالزواجِ منكِ وهو يعلم أنكِ لن تنجبين له.

بقيـت (فاطمـة) صـامتة وهـي تراقـب الأمـير يتوجـه نحـو البـاب، فتح الأمير الباب واستدار نحوها مبتسمًا ابتسامة صفراء ثم قال:

• خطـرت في بالي فكـرة! مـا رأيـكِ لـو تبيعـين نفسـك لي، فتكوني إحدى سراري.

انحنـت (فاطمـة) والتقطـت فـردة نعالهـا، ورمـت بهـا نحـو الأمـير، الـذي خـرج وتـرك البـاب مفتوحًـا، تجـاوز النعـال البـاب واصـطدم بالحـائط المقابـل، تلاشـى صـوت ارتطـام النعـال بالحـائط، مـع صـوت قهقهـة الأمير وهو يغادر القصر.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

13

في مطلع سنة 1953، وعلى وجه الدقّة، في اليوم الثاني من شهر يناير، انتقلت الأميرة (فاطمة) مع ابنتيها (العنود، ولؤلؤة) وجاريتيها (أنيسة، وونيسة) وشريك فراشها (جميل) العراقي، ومجموعة من العبيد والإماء الآخرين، إلى قصرها الجديد في مكّة، القصر الذي خصصه لها الأمير، لتعيش فيه مع ابنتيهما بعد طلاقها، وباشرت فور وصولها - كما هو حال المطلقات - بحساب العدّة الشرعية، وهي فترة ثلاث حيضات كما جاء في القرآن: "والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء" ويجب عليها خلال هذه الفترة عدم الخروج من البيت أو خطبة زوج آخر، لكن الغالبية العظمى تحسب ثلاثة شهور قمرية كاملة، قامت الأميرة (فاطمة) خلال هذه الفترة، بإنشاء جناحٍ خاص بها، لا يدخله أحد غير وصيفتيها التوأمين، وبالطبع فقد كان لا يسمح لـ (جميل) مغادرته تحت أيّ ظرف، لقد تكتمت الأميرة على (جميل) بشكلٍ كبير، حتى أنها وبعد شهرٍ تقريبًا أمرت (أنيسة) سرًّا بشراء عبدٍ مخصي، من (دكة) الرقيق قرب الكعبة، وجعلتها تأتي به ليلًا، لتقتله الأميرة وتشيع بأن العبد الخصي (جميل) قد مات،

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

وتبلغ بذلك ديوان الأمير، وتطلب منهم أن يبعثوا لها جارية نوبية شابة بدلًا عنه.

خلال هذا الشهر، قام مستوصف السراري بعمل عملية جراحية أخيرة لـ (ماكينزي).. تمَّ إزالة الرحم نهائيًّا، لعدم قدرتهم على ترقيعه أو ترميمه، استجاب بدن (ماكينزي) للعلاج سريعًا، غير أن روحها؛ يبدو أنها ماتت تلك الليلة.

عاد الأمير لطلبها بعدما تعافت قليلًا، فكانت تذهب إليه بعد أن تثمل، حيث تكون مخمورة تمامًا، الأمير كان يدرك أنها لا تريد أن تشعر بوجوده قربها، لكنه أهمل كلَّ تلك السراري اللاتي لا يعرفن ما تعني الحرية، أو اللاتي يعتقدن بأن الحرية حرام، وأنها اعتراض على قضاء الله وقدره، وكنَّ يتمنين أن يبعث خلفهنَّ الأمير، ليلنلَ قنينة عطر فاخر، أو حتى جوهرة ما، عندما يكون الأمير كريمًا جدًّا بعض الأحيان.

كان الأمير يريد من (ماكينزي) أن تقرَّ له بالعبودية، حتى يقتنع بأنه لا يفعل شيئًا منافيًا للصواب، أو إرادة الله، ربما.

كانت (ماكينزي) عبدة هي الأخرى مثل (جميل) لكنها تختلف عنه بشيءٍ واحدٍ فقط، بالرغم من أنها هي الأخرى محبوسة في غرفتها طوال الوقت، حتى يبعث خلفها الأمير، وأنها لا تلتقي مع الجواري الأخريات، ولا تتحدث مع أحد، كما أنها أصبحت مثل (جميل) تمامًا؛ لا تبتسم، إنها تختلف عنه في أنها تعرف القراءة والكتابة، وأنها

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

- الوحيدة ربما - من تتعمد المرور على مكتبة الأمير، في مكتبه الملاصق لحجرته في بيت السراري، وتسرق كتابًا، عندما تغيب عنها أعين الحراس، وتعيده بنفس الطريقة، الأمير بالطبع يعلم ذلك، فقد وجد كتاب النبي لجبران خليل جبران، داخل ثيابها في إحدى المرات، عندما قام بخلع ثيابها بنفسه وعاشرها، في حين كانت هي نائمة من شدَّة السكر، ربما جاءت بالكتاب لتعيده، لكنها نسيت أو لم تحظ بفرصة إرجاعه، لكن الأمير تجاهل الأمر، فماذا يمكن لكتاب أن يفعل لعبدة، محكمٌ عليها الخناق، في بيت أمير؟ كانت (ماكينزي) تقضي وقتها في القراءة، كانت تشاهد العالم بعيون جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، والجاحظ، الكتاب الوحيد الذي لم ترجعه كان كتاب (كليلة ودمنة) إنها تعشق هذا الكتاب، تعشق أن تتحدث الحيوانات والأشجار والنهر والعصافير والغربان والأفاعي، قرأته كثيرًا، لكنها لا تمل منه أبدًا، حاول الأمير أن يراها تبتسم، ولو لمرَّة واحدة وهو يعاشرها، لكنها أصرّت أن تبقيها حسرة في قلب الأمير، تعوّد جسمها مع الأيام، على الضرب والبصاق والركل والشتائم اللاذعة، لكنها كانت تترك الأمير ينتهي منها، فتذهب صامتة كما أتت صامتة.

في شهر يونيو من العام نفسه، أسقطت الأميرة (فاطمة) طفلًا ذكرًا، لم يتجاوز عمره الثلاثة شهور، ولما رأته ذكرًا غضبت كثيرًا،

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

وصفعت (أنيسة) - بغير سبب - لا الأميرة ولا (أنيسة) يعرفان سبب هذه الصفعة!

أمرت الأميرة (أنيسة) بعد صفعها بأن تبتعد عنها ولا تُريها وجهها أبدًا، لكنها لم تقل شيئًا حينما حضرت (أنيسة) ووضعتها في سريرها ليلًا، بعد تلك الحادثة عاشت الأميرة (فاطمة) عزلة شبه تامة، لا تستقبل أحدًا ولا تزور أحدًا، لكن معاشرتها لـ (جميل) بدأت بالازدياد، وبدأ (جميل) يشعر بالضجر.. (أم جميل) وخالته كانتا تحتالان عليه كل مرّة، وبعد كلّ مرة يصمم ألا يخضع لألاعيبهما، لكنه يخسر.

في الساعة 4:36 صباحًا، من يوم الاثنين الثاني من ربيع الأول سنة 1373 هجرية، الموافق للتاسع من نوفمبر سنة 1953، وبعد حكمٍ دام اثنتين وخمسين سنة؛ توفي الشيخ (عبد العزة آل سفود) أصبح الأمير (قيصر) وليًّا للعهد بشكلٍ رسمي بعدما اعتلى أخوه الأكبر غير الشقيق (مسعود) عرش الإمارة خلفًا لوالده.

كان الأمير (قيصر) يريد العرش لنفسه، وكان يعتقد بأنه أفضل من أخيه وأجدر، لكنه لم يستطع مواجهة الأسرة بطموحاته ورغباته هذه، فدسَّها بعيدًا في نفسه وعمل على تقريب أخواله رجال الدين من أُسرة آل السيخ - الشريك السرّي في الحكم - لأنهم يمتلكون (الله) ولديهم سلاح الفتوى الفتّاك، الذي لطالما ساند وساعد الشيخ الراحل على الانتصار، في أكثر من معركة قبل دخولها، كذلك قام

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

بالبحث عن أبناء أبيه وأحفاده من زوجاته الكثيرات اللاتي هربن منه، في دولٍ كثيرة كالبحرين وقطر ومصر والكويت، وبالفعل استطاع العثور على ثمانية أحفاد للشيخ من ثلاثة إخوان غير أشقاء له في قطر والبحرين وداخل الإحساء، جلبهم وأغناهم ووزع عليهم البساتين والقصور والأموال، وقربهم منه، ثم أعطاهم مسؤوليات في الدولة، ليكونوا عونًا له في خطته للاستيلاء على العرش، وعدم انتظار وفاة أخيه الشيخ (مسعود) وانتقال العرش إليه بصورةٍ ودية، لأن الشيخ (مسعود) لا يبدو عليه أنه سيموت قريبًا، فهو قوي البنية ويتمتع بصحة تفوق صحة الأمير نفسه، وفي مطلع سنة1954 ولد للأمير (قيصر) ثلاثة أولاد ذكور، وبنت واحدة من زوجاته الأربع الجديدات، فطلَّقَ الأمير والدة البنت، بعد أن وهب لها قصرًا وراتبًا شهريًّا كما فعل مع الأميرة (فاطمة) وتزوج أميرة جديدة عمرها خمسة عشر عامًا.

فتح الأمير خزينته ابتهاجًا بالمواليد الجدد، فبعث لكل زوجة من زوجاته السابقات عشرة ملايين ريال وقسَّم بين أمهات أولاده الذكور الثلاث مبلغًا وقدره (خمسة وسبعين مليون ريال).. عندما وصلت الأخبار إلى الأميرة (فاطمة) غضبت كما لم تغضب من قبل، ولأول مرّة منذ طلاقها تشعر بالحزن والغيظ والغيرة والمهانة، ثم دخلت في دوامة اكتئابٍ شديدة، فلم يعد يعجبها شيئًا وصارت سيئة الخلق مع الجميع، وقامت تعامل عبيدها وحرسها بقسوة، وبات كلامها بذيئًا

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

مع الجميع، لا تتكلم إلا صراخًا، مما حدا بـ (أنيسة) أن تتصل بوالدة الأميرة (فاطمة) الأميرة (لطيفة) التي جاءت بعد يومين، إلى قصر ابنتها لتطمئن عليها، حاولت الأميرة (لطيفة) مواساة ابنتها، وطلبت منها زيارتها والخروج من هذه العزلة، التي أصبحت على كلِّ لسان، فهي ليست أول أميرة يطلقها زوجها، والعائلة مليئة بالأميرات المطلقات، ومن هنَّ أسوأ منها حالًا وأشد مراقبة من أزواجهنَّ السابقين، وأنها تتمتع بحرية أكثر من غيرها، كما اقترحت عليها أن تولم وليمة، تدعو والدها وأخواتها وأزواجهن وبعض الأعمام والأخوال، مساندةً لأبيها في هذه الأزمة التي تمر بها العائلة، فسألت (فاطمة) باستغراب:

- أي أزمة؟

قالت والدتها:

- ألم أخبركِ بأنكِ أفضل من غيرك، أنتِ تعيشين ببذخ، ولا تعلمين ما يحدث؟

فقالت (فاطمة):

- وما الذي يحدث يا أمي؟

قالت الأم:

- إن الأمير (قيصر) يعمل على تجريد إخوته وأبناء إخوته من امتيازاتهم، ممن أقسموا على الوفاء بوصية جدك الملك المغفور له، ومن يقفون بوجه طموحه في الاستيلاء على العرش، لقد عزلَ أباكِ

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

وعددًا من أعمامكِ من مناصبهم، لأنهم أوفياء مخلصون للشيخ (عبد العزّة) والشيخ (مسعود).. إنه يقوم برشوة الأمراء، وشيوخ الدين، وكبار البلاط، ورجال الأعمال، من أجل تنحية أخيه الأكبر وتوليته العرش، كما أنه يبحث عن عوائل إخوته الأحياء، أو أبناء من توفي منهم، وكانوا مختفين في البلدان، يجلبهم ويعطيهم مناصب إخوته وأبنائهم، حتى يميل بكفة العائلة إليه.

فقالت (فاطمة):

• أنا لا أصدق هذه الحكاية، حكاية أعمامنا وأولاد عمومتنا الذين هربت بهم أمهاتهم وأخفينهم بعيدًا عن الملك، أراها قصة من قصص ألف ليلة وليلة، أراها حيلة من الأمير لاصطناع أتباعٍ له، كي ينقلب على العائلة ويأخذ كلَّ شيء، وبعد ذلك يقوم بتصفيتهم، لا أحد يعرف الأمير مثلي.

قالت الأميرة (لطيفة):

• وهل تعتقدين يا (فاطمة) بأن إخوان الأمير وأعمامه بهذه السذاجة، إذ يقبلون أي شخص يأتي بهِ الأمير ويعترفون به أنه من عائلتهم؟ آن لكِ أن تكوني مثل باقي الأميرات، وتعرفي تأريخ عائلتكِ، ولا تهتمي بشؤونكِ الخاصة فقط.

فقالت (فاطمة):

• لم أفهم يا أمي.

قالت الأم:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• كان الشيخ (عبد العزّة) يطمح أن يكون شيخًا منذ أن كان صغيرًا، كان يريد تشكيل جيش بأي ثمن، حتى لو لم يقف معه أحد، لذلك فقد تزوج كثيرًا حتى يكون له جيش من أولاده، كان يتزوج بالمرأة حتى تحمل وتلد، فإن ولدت له ذكرًا أبقاها، وإن ولدت بنتًا طلقها، وهكذا، فلما عرف بعض نسائه بنيته، خفن على أولادهن فهربن بهم وأخفينهم.. (فاطمة) هل تعرفين خاتم أبيكِ الزبرجد الأخضر، الذي يتزين به في المناسبات العائلية فقط؟

فقالت (فاطمة):

• نعم، وأعرف أن الكثير من الأمراء، لديهم مثله بالضبط، وأنه هدية من الشيخ (عبد العزّة) لأولاده وإخوانه، وأن أبي ورثه عن أبيه لأنه الأكبر بين أعمامي، كما أن الشيخ (عبد العزّة) نفسه، عنده الخاتم نفسه، ولكن بحجم أكبر.

قالت الأم:

• حتى عبيدنا يعرفون هذه القصة، لكنَّ ما لا تعرفينه، لأنك متعالية عن ثرثرة النساء، هو أن الشيخ (عبد العزّة) لما كثُرت زوجاته المطلقات، وكان فيهن من ولدت له بنتًا فطلقها مباشرة، ومن ولدت له ذكرًا واحدًا، أو أكثر، وبعدها ولدت له بنتًا فطلقها أيضًا، وتزوج غيرها كي تنجب له الذكور، ولم تكن نساؤه في بيتٍ واحد ولا قبيلة واحدة، ولا حتى في بلدٍ واحد، فخشي أن تدَّعي إحدى طليقاته، اللاتي أنجبن فقط إناثًا، أنها أنجبت له ولدًا أيضًا، بعدما يتم نسيانها،

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

وتأتي بولد ذكر، من حرام، أو من أحد أقاربها وتنسبه للشيخ، فكر الشيخ (عبد العزّة) في أمر يميز بهِ أمهات الذكور، عن أمهات الإناث، اللاتي طلقهن، فأشار عليه أحد تجار الأحجار الكريمة اليهود، وكان الملك يثق بمشورته ويستشيره في أموره – أحيانًا – أن يصنع لكل من أنجبت ذكرًا من زوجاته خاتمًا نادرًا، وأخبر الملك بأن في حوزته حجر زبرجد مصري نادر، وأن باستطاعته أن يعمل منه قرابة الثلاثين خاتمًا، فأعجب الملك بالفكرة وكان عنده آنذاك نحو ثلاث وعشرين زوجة ولدن ذكورًا، فأمر جدكِ التاجر اليهودي بتصغير حجم الخاتم حتى يكفي الحجر لصياغة أكثر من ثلاثين خاتمًا، بعد مدّة جلب له اليهودي ثمانية وثلاثين خاتمًا متشابهًا، وخاتمًا منفردًا من الحجر نفسه أصغر قليلًا من أن يكون خاتمين، تمنى اليهودي أن يقبله الشيخ له شخصيًّا، لأنه لم يشأ أن يتلفه بصناعة خاتم صغير، بعدما تأكد الشيخ (عبد العزّة) من عدّة مصادر، بأن هذا الزبرجد نادر فعلًا، قام بقتل اليهودي، حتى لا يصنع خاتمًا مشابهًا، ثمَّ وزع الخواتم على زوجاته أمهات الذكور، وأعطى أخويه خاتمين أيضًا، ثم احتفظ بالباقي، لكن الشيخ لم يتوقف عن التزاوج، فنفدت الخواتم كلها، وهناك من زوجاته ممن مات الشيخ وهنَّ على ذمته، وقد أنجبن ذكورًا، ولا يملكن خواتمًا، فالعائلة الآن لا تقبل كلَّ من يدعي النسب للملك إلا إذا جلب معه خاتم الزبرجد النادر

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

ذاك، والأمير يعرف ذلك جيدًا، لذلك فكل من وجدهم كانوا يحملون ذلك الخاتم.

ابتسمت (فاطمة) بعد حين، وقالت لأمها:

- أنا أرى فكرة الوليمة فكرة رائعة، سأعمل على ترتيبها منذ اليوم.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

14

عـادت للأمـيرة (فاطمـة) بسـمتها وحيويتهـا وأخلاقهـا الدمثـة، بعـدما غـادرت الأمـيرة (لطيفـة) وراحـت تـركض إلى سـجينها وعشـيقها (جميـل) وارتمـت في حضـنه، وقامـت بتقبيـل رقبتـه وصـدره وخديـه وعينيـه وهي فرحه، فقال لها بتحفظ:

• ما الذي حدث يا سيدتي؟

قالت (فاطمة) بصوتٍ يملأه الحنان:

• بل أنت سيدي ومولاي وأميري وزوجي.

اسـتخدم (جميـل) نظـام دفاعـه القـديم، وهـو اسـتخدام غبائـه في المـواطن الـتي يخشـاها ولا يـدري مـا وراءهـا، عصـرت الأمـيرة أنفـه بـين إصبعيها (السبابة والوسطى) ثم قبلت أنفه وقالت:

• سـأجعل منـكَ أمـيرًا وسـتجالس الأمـراء وربمـا سـتكون الشـيخ، يا سيدي ومولاي وحبيبي، ستفهم كلَّ شيءٍ قريبًا.. قريبًا جدًّا.

ثمَّ أن الأمـيرة (فاطمـة) ذهبـت إلى بهـو القصـر، وأمـرت كاتبهـا بتوجيـه دعـوة رسميـة لكـل مـن يعـارض الأمـير، مـن أعمامـه وإخوانـه وأولاد أعمامـه الآخـرين، وبالطبـع وجهـت الـدعوة إلى أبيهـا و(أنسـبائه) وأخواتها، كمـا وجهـت دعـوة خاصـة لأمهـا الأمـيرة (لطيفـة) ومـن ترغـب

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

بإحضاره معها، ثمّ نادت مربيتها (أنيسة) وأخذتها معها إلى جناحها السري حيث (جميل) وأمرت (ونيسة) بالوقوف على باب حجرتها في جناحها العام، وعدم ترك أي جارية لدخولها بغرض التنظيف والترتيب، وإخبار الجميع بأن الأميرة في قيلولة.

في الجناح السري جلس (جميل) وخالته بانتظار أوامر الأميرة (فاطمة) المشغولة عنهما بإعادة ترتيب زينتها، التفتت إليهما وأمرتهما بالجلوس وبقيت هي واقفة، تروح وتجيء في الحجرة، تفكر بطريقة سهلة لشرح الأمر لهما، ثم اقتربت منهما وجلست، وضعت قدمها اليمنى فوق اليسرى حتى بدا بياض فخذها وقالت:

- وجدتُ طريقة لجعل (جميل) أميرًا سفوديًا، سنتزوج في العلن، وسيكون (جميل) أهم أمير في الإمارة، بمساعدة والدي وكل من يكره الأمير، لكن يجب عليكما أن تنفذا ما سأخبركما به بغاية الدقّة، لا تقلقا الأمر بغاية البساطة.

التفت (جميل) إلى (أنيسة) فوجدها تنظر إليه ولما تلاقت أعينهما، التفتت (أنيسة) إلى الأميرة وقالت:

- أنا لم أفهم شيئًا.

ثم عادت والتفتت إلى (جميل) وقالت له:

- هل فهمت أنتَ شيئًا؟

فردَّ (جميل) بملامح الغباء التي يرسمها على وجهه وهو خائف.

فقالت الأميرة:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• ركزا معي فالأمر ليس بذلك التعقيد، حتى أعقد أمرٍ في الحياة يزول غموضه ما أن نفهمه ويتحول إلى شيءٍ تافه، وقد كنّا نراه مستحيلًا، خصوصًا عليكِ أنتِ يا (أنيسة) فأنتِ أذكى وأدهى مني، الأمر ببساطة، أن العائلة تبحث عن أمراء من نسل جدي، من زوجاته اللاتي أخذن أولادهنَّ وهربنَ منه واختفينَ عن أماكن نفوذه، كلُّ ما علينا فعله هو تعليم (جميل) طريقة التصرف كالأسياد، عليكِ يا (أنيسة) أن تجعليه يتصرف كسيدٍ حر وليس بالضرورة كأمير، وأنتَ يا (جميل) عليك التعلم سريعًا وإطاعة (أنيسة) في كل ما تأمرك به وتنفيذ طلباتها بدقة، ثمَّ نأخذ (جميلًا) ونشتري له بيتًا منعزلًا في مكانٍ ما من الإمارة، أو ننصب له بيت شعر في هذه الصحراء الواسعة وقطيع ماشية ومجموعة من العبيد والإماء، ثمَّ يذهب إلى أقرب مركز للشرطة أو الجيش ويقدم نفسه على أنه أميرٌ من آل سفود، هذا كلُّ شيء.

قالت (أنيسة):

• هل أنتِ جادة يا سيدتي؟ أهكذا سيكون (جميل) أميرًا سفوديًا بهذه البساطة؟

فقالت الأميرة (فاطمة) وهي تضحك:

• تخيلي يا (أنيسة) أن الأمر هكذا بغاية البساطة.

ثمَّ استغرقت الأميرة (فاطمة) بالضحك كثيرًا وبصوتٍ عالٍ، وكأنها كانت تنتظر هذا الوقت لتضحك من الدنيا كلها، لتضحك

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

من العبث والسلطة والمال والنفوذ والنفط وأُسرتها، التي تعتقد بأنها أسرة الله والبترول، ثم قالت:

• بالطبع يا (أنيسة) نحتاج بعض التحضيرات، لكني شرحت فكرتي لكما ببساطة، كي لا تخافا وتعتقدا بأن الأمر مستحيل، هناك أمر في غاية الأهمية وهو ما سيثبت أن (جميل) هو بالفعل أميرٌ سعودي، ولأكون أكثر دقة سيكون حفيدًا للشيخ (عبد العزّة آل سعود) من ابنه المتوفى، سنختار اسم الابن المتوفى والاسم الذي سيكون لـ (جميل) فيما بعد، أحتاج للسؤال ومعرفة أمور أخرى عن الشيخ (عبد العزّة) وأعلم أين أجد تلك المعلومات.

فقال (جميل):

• كنت تقولين أن هناك أمرًا في غاية الأهمية، سيثبت بأني أمير.

نظرت الأميرة إلى (جميل) وقالت:

• ماذا تخبئ أيضًا يا (جميل) عني؟ أرى أنك لست بالغباء الذي تدعيه.

أطرق (جميل) برأسه ولم يجب بشيء، فقالت الأميرة:

• الشيء المهم هو خاتم زبرجد نادر، يحمله كلُّ أولاد الشيخ، وهذا سهل أيضًا، فإني سأطلب من أبي في الحفل الذي سأقيمه، أن يريني خاتمه لأريه لبعض النساء، وسأعطيه لكِ يا (أنيسة).. أنتِ تكوني قد أحضرتِ صائغًا ماهرًا مع كامل عدّته وأخفيته في هنا

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

القسم السري، ليستنسخ لنا خاتمًا مثله من حجارة عادية، تكون من اللون نفسه، بأسرع ما يستطيع، ثمَّ تعطيني الخاتم لأعيده ثانية لأبي، بينما تكون أنت يا (جميل) قد تخلصتَ من الصائغ، وتستطيع دفنه في أي زاوية من زوايا هذا القسم وإعادة الأرضية مكانها.

فقالت (أنيسة):

• وماذا لو أن عائلتكِ قامت بفحص الخاتم واكتشفوا بأنه ليس أصليًّا؟

قالت (فاطمة) على الفور:

• يا غبيَّة، العائلة ستفحص الخاتم مؤكدًا، وسيجدون أنه أصلي تمامًا، أنا سأعيد لأبي الخاتم المزور وسأعطي لـ (جميل) الخاتم الأصلي، كل الخواتم والأحجار عند أبي تتشابه، فهو لا يعرف الفرق بين الحجارة الكريمة والحجارة الملونة العادية، أنا متأكدة تمامًا أنه لن يشكَّ بشيء، ولن يعرض خاتمه يومًا على خبير.

فقالت (أنيسة):

• الأمر يبدو بغاية البساطة يا سيدتي، لكنه أمرٌ خطير، وهذا ما يجعلني أسألكِ يا سيدتي، هل أنتِ متأكدة من أنكِ تريدين القيام بهذا الشيء حتى النهاية؟ لأنه في حالة فشلنا فحياتكِ هنا معرضة للخطر، وأنتِ تعلمين بأن حياتكِ عندي أهم من حياتي.

قالت الأميرة (فاطمة) وهي تبتسم مثل ثائرٍ فرنسي يتوجه صوب المقصلة مرفوع الرأس:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• حياتي لن تكون في خطر إن فشلنا يا (أنيسة) بل أن العائلة ستقطع رأسي بالسيف حسب الشرع، في ساحة عامة بمكّة وربما عند الكعبة داخل المسجد الحرام، أنيسة.. جميل.. أنا متأكدة من نجاح الخطّة في هذا الوقت بالذات، لأن حتى هذه اللحظة ونحن في شهر جمادى الآخرة من سنة 1373ـ الموافق لشهر فبراير من سنة 1954 ميلادية - لم يصدر أي قانون للجنسية، أكثر الناس الآن وخصوصًا البدو ما زالوا لا يملكون أوراق ثبوتية عثمانية، وقد سمعتُ من الأمير أكثر من مرّة أنهم يناقشون صدور قانون عام لتنظيم الجنسية السفودية، لكنه لم يصدر حتى الآن، كل ما يحتاج إليه (جميل) لإثبات أنه أمير سفودي من نسل الشيخ هو خاتمُ زبرجدٍ أخضرٍ نادر، وأنا أملكُ هذا الخاتم.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

15

يوم الأحد، السادس من شهر حزيران، سنة 1954 سمعت (ماكينزي) وهي على باب المكتبة صراخ الأمير من الداخل على أحد مستشاريه بغضبٍ غير مسبوق، لقد سمح لها الأمير (قيصر) بالخروج من غرفتها في الشهور الأخيرة، فراحت رويدًا رويدًا تختلط ببقية الجواري والإماء والعبيد، وتكوّن لها صداقات داخل حرم السراري، أعطاها الأمير كذلك، حرية كاملة في استعارة الكتب من مكتبته، لقد لاحظ أن (ماكينزي) تكون في قمّة هدوئها وصمتها، حينما تحصل على كتاب، أراد الأمير بهذا الفعل، أن يتخلص من كلماتها البذيئة، وتمردها الدائم، وإظهار ملامح الاشمئزاز وعدم الرضا، حين تكون بحضرته، في الحقيقة لقد جرّب الأمير طرقًا كثيرة لتدجين (ماكينزي) فقد قام بعقابها وجلدها وتحطيم روحها بإذلالها وحبسها مع الكلاب، لكن كل تلك الطرق لم تفلح، وبقيت (ماكينزي) متمردة مثل لبؤة برية، حتى أن الأمير لم يعد يسأل نفسه عن مصدر تلك الطاقة الخارقة التي تمدها بالتمرد، سمعت (ماكينزي) الأمير وهو يصرخ على مستشاره، بنبرة يأسٍ غاضبة، كان يصرخ ويقول:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• أين كانت عيونكم أيها الكلاب الكسالى؟ كيف وصل هذا العبد إلى القنصلية البريطانية في جدّة؟ ماذا تفعلون؟ ثمَّ كيف استطاع السفير إخراج العبد بدون معرفتكم؟ هل تعلم أن الصحافة ومحطات التلفزيون الفرنسي تقود حملة منذ أيام على قانون الرقيق في السعودية؟ هل تعلم كم برقية وصلتني من مختلف بلدان العالم تطالبني بحسم قانون الرق وطي صفحته؟ كلُّ هذا بسبب تقصيركم والسماح لعبدٍ بالوصول إلى السفارة البريطانية بجدّة، وطلبه باستعادة حريته، ومن ثم ترحيل البريطانيين له، وفضحنا أمام شاشات التلفزيون العالمية، سأفكر في عقاب المقصرين منكم لاحقًا، أما الآن فأريدك أن تصدر قانونًا مشددًا مفاده... ثم أن الأمير صرخ بمستشاره:

• اجلب ورقةً وقلمًا أيها الحمار واكتب.. قرار أميري: "لا يحق للسفارة البريطانية ترحيل أي شخص على أي قارب، إلا بعد موافقة مسبقة من أمير جدة - وكانت تأشيرات الخروج تصدر من أمير جدة وحده - أما إن كان عبدًا لاجئًا تم تحريره، فيستلزم موافقة خطية من أمير جدة قبل أن تقوم السفارة البريطانية بترحيله."

ثمَّ أن نبرة الأمير قد خفَتت قليلًا وقال:

• قم بتوجيه دعوة للسفير البريطاني لزيارتي غدًا في مكتبي الشخصي في القصر هنا.

في اليوم التالي سمح حرس البوابة الخارجية للقصر، للسيارة التي تقل السفير وسائقه، بالدخول فقط، نزل السفير عند باب مكتب

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

الأمير داخل قصر السقاف، بينما بقي مرافقي السفير عند البوابة الخارجية، هم وسياراتهم، كان الأمير شخصيًّا في استقباله، على باب قصره، واصطحب السفير إلى مكتبه بوجهٍ مبتسم وبعبارات الترحيب والتعظيم والتبجيل، له وللعرش البريطاني.

بعدما جلس السفير قال له الأمير (قيصر) مازحًا:

• أتعرف يا سعادة السفير تيلهام؛ بأني أحسد العبد الذي حررته وأرسلته على باخرة إلى بلده، لأنكم عاملتموه معاملة الحرِّ للحرّ، بينما تعاملنا بريطانيا وكأننا عبيد لديها ونحن في بلادنا، هذا الأمر يزعج العائلة جدًّا، لم تتركوا لنا سلطة على موانئنا، تدخلون من تريدون وتخرجون من تريدون، أنا لا أعترض على هذه الأمور ولا أقلل من دور بريطانيا العظمى في حفظ العرش السفودي، لكنني أتمنى أن تستشيروننا على الأقل، فنحن أصدقاؤكم في المنطقة، وطالما عملنا على الحفاظ على مصالحكم، حتى قبل مصالحنا.

فأجاب السفير (جورج تيلهام) بابتسامة باردة:

• أنت تعرف يا سمو الأمير أن العالم قد تغيّر، ولم تعد بريطانيا القوة الوحيدة في العالم، فأمريكا وروسيا تجلسان لنا بالمرصاد، وتحسبان علينا الهفوات، هذا بالإضافة إلى فرنسا التي يحمل بعض عبيدكم جنسيتها، عندي إحصاءٌ شبه أكيد يقدر عدد العبيد في الإمارة بأربعين ألف، غالبيتهم من النساء والأطفال، منهم ثلاثة آلاف داخل القصر الأميري وحده،

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

لا يمكن إخفاء هذا العدد الضخم عن أعين العالم، أنتم يا سمو الأمير تضعوننا في موقف محرج لدى شعبنا ومستعمراتنا.

فقال عندها الأمير بامتعاض:

• أنت تعرف طبيعة مجتمعنا يا سعادة السفير، إن الرقّ يعتبر من الأمور الدينية المقدسة لدى الناس، ولا نستطيع إجبارهم على التخلي عنه، إننا نحاول أن نبني دولة حديثة، لكن هذا الأمر يحتاج إلى وقت.

قال السفير (جورج تيلهام):

• أنا أدرك ذلك جيدًا، لكنكم يا سمو الأمير لا تقومون بما يلزم للحدِّ من العبودية، فما زالت (دكة) الرقيق بجوار الكعبة، حتى هذه اللحظة تبيع العبيد في العلن، اليوم صباحًا بلغ سعر الجارية الجميلة سبعة عشر ألف ريال، والمتوسطة الجمال تباع بسبعة إلى ثمانية آلاف، كما لا يخفى عليك التقرير الذي أرسله السفير الفرنسي في جدّة في نوفمبر الماضي سنة 1953.

معي قائمة بمن يشتبه بهم السفير الفرنسي بنقل العبيد إلى ساحل جدة، انظر..

ثم أن السفير البريطاني وقف وأخرج مجموعة أوراق من حقيبته، وراح يقرأ على الأمير (قيصر) ما كتبه السفير الفرنسي، ويشير بإصبعه إلى السطور، بينما اكتفى الأمير بالمتابعة، دون أن يعترض على كلام السفير الفرنسي، واصل السيد (جورج تيلهام) القراءة:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• انظر يا سمو الأمير، السفير الفرنسي يذكرهم بالأسماء:

أحمدو بوبوي، سنغالي مقيم في جدة.

الشيخ عبدو بجني من النيجر يقيم في جدة.

الشيخ عبد الله البحيري من كبار حارة اليمن في جدة وهو من شيوخ الدلالين.

ثمّ انظر هنا يا سمو الأمير، انظر لهذه الأسماء، فالسفير الفرنسي يقسم يقينًا بأنهم يبيعون الجواري مباشرة للقصور والمتنفذين والميسورين:

عمر كِندي، سنغالي في مكة.

حاج مُحَمَّد عمر فتاي، سنغالي في جدة.

تيرنو يوروبا، سنغالي في جدة.

أحمدو تديان ديو في جدة.

حاج بلي، سنغالي في مكة.

مُحَمَّد طاهر، من قبيلة الطوارق يقيم في السودان ويتاجر في جدة.

محسن، نيجيري موظف في شركة باكر الأمريكية في جدة.

عندها قال الأمير:

• كما قلت لك، مجتمعنا يحترمنا لأننا نحمي له حريته في الاعتقاد، والرقُّ من الأمور المقدسة عنده، فلو أننا منعنا تجارة العبيد فإنه سيثور علينا، وسيطردكم معنا، أعود وأكرر؛ أننا بحاجة إلى الوقت، والأمريكيون يعرفون ذلك ولا يضايقوننا كثيرًا في مسألة الرق.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

فقال السيد (جورج تيلهام) بنكهة كوميدية سوداء، كما هي عادة الإنجليز:

• أمريكا لا يعنيها من اللون الأسود غير النفط، ما زالوا حتى هذه اللحظة لا يسمحون للسود بتناول الطعام مع البيض، ولا يسمحون لهم بالدخول حتى إلى مراحيضهم.

قبل أن يغادر السفير (جورج تيلهام) مكتب الأمير، قال له:

• نحن على دراية بالصراع بينك وبين أخيك الشيخ (مسعود) كما نعلم جيدًا بأن هذا الصراع سينتهي ربما إلى صالحك، إن كنتَ تريد دعمنا أيها الأمير، فلا بد لكَ من مساعدتنا في القضاء على العبودية.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

16

بعد أن أوصل السائق الهندي (أحمد أكبر تاقور) السفير البريطاني (جورج تيلهام) إلى مقر إقامته في السفارة البريطانية في جدّة، أوقف السيارة في المرأب مع بقية سيارات السفارة، تذكر (تاقور) قبل أن يغادر، بأنه وضع مظلته الشمسية الصفراء في صندوق السيارة.

شهر حزيران من الشهور التي تكون فيها الشمس عمودية فوق جدّة، مما يجعلك تشعر بأن البخار يتصاعد من شعور العابرين، مكشوفي الرؤوس القلائل في الشوارع، لقد أخذ عادة السير تحت المظلّة، من الرجال الإنجليز الذين يعملون في السفارة، تفاجأ (تاقور) حين فتح صندوق السيارة، بوجود (ماكينزي) مختبئة هناك، أخرجها سريعًا من ذلك التابوت الحديدي، وسط درجة حرارة تتعدى الأربعين درجة مئوية، أبلغ عنها أمن السفارة الذين حققوا معها بوجود مترجم عربي، لكنها راحت تتكلم بلغة فرنسية طليقة، وكان أحد ضباط التحقيق يجيد الفرنسية، فأخرجوا المترجم وأكملوا التحقيق معها بلا واسطة.

قالت (ماكينزي) في إفادتها الأولية:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• أنا (ماكينزي أوهانيس إبراهميان) ولدتُ في اليوم السابع من شهر حزيران من سنة 1942، سمتني أمي (ماكينزي) لأنني ولدت شقراء تمامًا ولم أستطع فتح عينيّ، إلا بعد يومين، تمّ اختطافي عندما كنت في الثامنة من عمري وباعوني إلى الأمير (قيصر) ومنذ ذلك الوقت وأنا عبدة عنده، لقد سمعتُ بأنكم تحررون العبيد وترجعونهم إلى بيوتهم، أريد العودة إلى البيت.

ما أن سمع ضابط التحقيق اسم الأمير، حتى أشار إلى رفيقه بترك الغرفة، تبعه المحقق بعد أن أكملت (ماكينزي) جملتها الأخيرة.

في الخارج اتفق المحققان على إطلاع السفير فورًا بأمر (ماكينزي).. لم يتقدم لهم حتى الآن عبدٌ من عبيد القصر الأميري ولا يعرفون كيف يتعاملون مع هذا الوضع، جاء السفير مسرعًا وقابل (ماكينزي).. طمأنها أنها ستعود قريبًا إلى وطنها، لكن الأمور ستختلف قليلًا عما كانت عليه قبل الأمس، حيث صدر أمرٌ من الأمير بأخذ موافقة خطية من أمير جدّة في حالة إعادة أحد العبيد المحررين إلى بلده.

المشكلة أن أمير جدّة، هو نفسه الأمير الذي يستعبدكِ، لكني أعدكِ أني سأحاول معه، وسأجعل حكومتنا تخاطبه مباشرة، كما أتمنى منكِ أن تطلعينا على حال العبيد الآخرين داخل قصر الأمير حتى أرفع تقريري إلى حكومتنا لتتولى التفاوض مع الأمير بشأنكِ وشأن باقي العبيد في قصره.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

قالت (ماكينزي):

• وماذا تريد أن تعرف؟

فقال السفير:

• كل شيء، عددهم، جنسياتهم، أصولهم، أعمالهم، معاملة الأمير لهم، أخبريني بكل شيءٍ تعرفينه.

قالت (ماكينزي):

• أنا لا أعرف غير الحريم والمخصيين في قسم الجواري الخاص بالأمير، وهم كُثُر، أكثر من مقدرتي على العدّ، إنهم بالآلاف، ومن كل الألوان والأعراق واللغات، عندما تذهب إلى الحمّام التركي، فإنك تسمع لغات كثيرة لا تستطيع تمييزها، كلٌّ مجموعة تتحدث بلغة، لكن عندما يحضر أحد حراس الأمير أو خدمه المقربين، فلن تسمع غير العربية.

فقال لها السيد (جورج):

• ماذا يفعل العبيد عادةً، يومًا بعد يوم؟

قالت (ماكينزي):

• إنهم يقومون بكلِّ شيءٍ يرغب به الأمير، ما عدا النوم والأكل، فالأمير يقوم بهما بنفسه، هناك جوارٍ مخصصات لمتعة الأمير، وجوارٍ للتنظيف،

جوارٍ للطبخ،

جوارٍ للغناء والرقص،

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

جوارٍ لرواية القصص،

جوارٍ للعناية بأولاده،

جوارٍ لتمشيط شعر زوجاته،

جوارٍ للخدمة وتقديم المشروبات والحاجات التي يرغبون بإمساكها بأيديهم،

جوارٍ (لتلْييفِه وتشطيفِه) في الحمام،

عبيدٌ للتحميل ونقل الأشياء الثقيلة من أثاث وشجيرات زينة وأشياء أخرى من مكانٍ إلى آخر حتى لا يشعر الأمير بالروتين، عبيد لإثارة نسائه ولعق بظورهن، لأنهم لا يدخلون إلا المخصيين إلى حرمه، عبيد تجهيز المطابخ بأنواع الطعام، عبيد لفلاحة الحدائق خارج القصر، وإن ماتت شجرة مات معها راعيها، عبيد لركوب الأمراء الصغار على ظهورهم، كي يتعلموا الفروسية مبكرًا، وهناك جواري وعبيد آخرون لا أعلم ما يقومون به، لأني لم أختلط بالجميع. فسألها السفير مجددًا، بعدما صمتت قليلًا:

- وكيف يعاملون العبيد والجواري في القصر؟

قالت (ماكينزي):

- أن تنسى أنك إنسان هي أفضل وسيلة للاستمرار في حياتك كعبد، تعلمتُ هذه النصيحة مبكرًا من إحدى الجواري التي لم تعمل بنصيحتها، فماتت منتحرة، أما إذا كنت تعتقد بأنك بشر، ولديك طاقة وقدرة تحمل محدودة، فهذا سيشعرك بأسوأ من شعورك

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

بأنك عبد، وسيعرضك لكثير من العقوبات، يجبروننا على النوم لساعاتٍ طويلة حتى تصاب عضلاتنا بالضمور، أو يمنعوننا من النوم لفتراتٍ طويلة جدًّا، حتى نفقد التركيز ونصاب بالهلوسة والضعف، في قصر الأمير، توجد كذلك زنزانات انفرادية قذرة وضيقة ومظلمة، في إحدى المرّات حشروني مع أعداد كبيرة في زنزانة واحدة لا تتسع إلا لشخصٍ واحد، رأيتُ مرّة إحدى الجواري ترتعش فسكبت النبيذ على رأس الأمير، فأمر بكيّها بواسطة قطعة معدنية، بحجم وطول قلم الرصاص، رأيت جسمها بعد ذلك وكان المنظر مخيفًا، كما أنهم أحرقوا بظرها وأُستها وتحت إبطيها بإطفاء أعقاب السجائر في تلك الأماكن، وكانوا دائمًا ما يطلقون على المخصيين كلابهم الشرسة، أو يقوموا بإلقائهم في حفرة مليئة بالأفاعي والعقارب السامّة، كان أكثر عقابًا نتمناه هو ضربنا بالهراوات والعصي والسياط حدَّ الإغماء، وضعوني مرّة في قفصٍ صغير مربع، حجمه بحوالي نصف المتر، وقاموا بتقييد رأسي وركبتيَّ، وبقيت على هذه الحالة لمدة أسبوع.

فقال لها السفير:

• يكفي يا (ماكينزي).. لا أستطيع التحمل أكثر، ربما ستكتبين ذلك يومًا ما، بعد أن تعودي إلى بلدك.

في اليوم التالي وصلت مجموعة من قوات الجيش وحرس الأمير وأحاطت بالسفارة البريطانية، بعدما وصلت رسالة من السفارة إلى

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

مكتب أمير جدَّة، تطلب منه الموافقة على إرسال (ماكينزي) إلى لبنان،

طالب الجيش العاملين في السفارة البريطانية بتسليمهم (ماكينزي) وإلا فسيقتحمون السفارة، اندلعت على إثرها أزمة دبلوماسية بين البلدين، الموقف البريطاني كان ضعيفًا، ولم يكن بتلك الجدية التي يتطلبها الموقف، لأن البريطانيين كانوا يخشون أن يتأثر العمل في التنقيب عن النفط في منطقة البريمي، تنازل البريطانيون عن مطلب تحرير كلّ عبيد القصر، واكتفوا بطلب ترحيل (ماكينزي) إلى لبنان، بينما كان موقف الأمير واضحًا من الأزمة، الأمير كان يصرّ على عودة (ماكينزي) لأن تصرف السفير البريطاني كان غير قانوني، وقد خرق السفير، الاتفاقية الموقعة بين البلدين سنة 1927 حين وقعت حكومة التاج البريطاني معاهدة مع الشيخ (عبد العزّة آل سفود) سمّيت باتفاقية جدّة، أرسل وزير الخارجية السفودي آنذاك، رسالة إلى السفير (جورج تيلهام) يخبره بأن المسألة باتت مسألة مبدأ، وأن حكومة بلاده لا ترضخ من منطلق سيادي لرغبة البريطانيين في أي شأن خارج عن اتفاقية جدة 1927م، وأوضح في رسالته أن (مكّة) هي إحدى عبيد القصر الملكي الذين لا تشملهم اتفاقية جدَّة.

كان الوزير يشير إلى الفقرة (أ) من المادة السابعة من اتفاقية عام 1927م، وكان في مفاوضات اتفاقية جدة، مع السير جلبرت

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

كلانتون، أن أستثني عبيد القصر الملكي، كونهم في حقيقة الأمر؛ إمّا جنود أو خدم خاصين.

انتهت الأزمة الدبلوماسية بين البلدين، في الخفاء، كما بدأت بطرد السفير (جورج تيلهام) وعودة (ماكينزي) إلى قصر الأمير.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

17

طلبت الأميرة (فاطمة) من أبيها أن يرسل لها خادمًا حرًّا، يثقُ به جدًّا، يكون جسورًا وشجاعًا، يساعدها في بعض الأمور التي قد تحدُّ من سلطة الأمير، وستخبره بكلِّ التفاصيل فيما بعد، فأرسل لها والدها بعثمان بن خالد النجدي، وكان من جواسيسه في الحرس الخاص بالشيخ عبد العزّة، وكان يجيد البقاء مخفيًّا غير مثير للاهتمام.

وبعث معه الأمير الوالد رسالة خاصة للأميرة، كان مكتوبًا فيها:

• "احرصي على أن تتخلصي من كل أثر، قد يقود إلينا، فيما لو أنهيتِ ما تريدين."

طلبت الأميرة من (عثمان النجدي) أن يبحث لها عن بيتٍ قديم في المنطقة الشرقية، يكون بين البادية والحَضَر، يصلح لأن يكون لرجلٍ ميسور معتكف، وأن يكون هذا البيت غير مسكون لفترة طويلة، وطلبت منه كذلك أن يكتب البيت بتأريخ قديم، منذ ثلاثين عامًا، باسم رجلٍ يدعى (ماضي بن مساند)

ثمَّ أوصته ألا يخبر أحدًا بذلك، حتى والدها الأمير، إلى أن تأذن له، كما أكدت عليه قائلة:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• بعد أن تشتري البيت وتكتبه باسم (ماضي) تخلص من صاحب البيت والمقربين منه نهائيًا.

بعد ذلك، أعطته مبلغًا كبيرًا من المال، وقالت له:

• خذ هذا المال يا (عثمان).. أريدكَ أن تدفع ثمن البيت الذي ستشتريه منه، ولا علاقة لي إن كنت ستسترجعه من المالك بعد أن تتخلص منه، كما أريدك أن تشتري ثماني إماء وخمسة عبيد من المنطقة الشرقية وما حولها، وتأكد بأن يكونوا من العبيد الجدد الذين لم يباعوا إلى أحدٍ بعد، حاول أن تجد من لا يجيد اللغة العربية أو إذا وجدت من لديه عاهة في الكلام فسيكون أفضل، خذهم إلى البيت ودعهم يعيدون إليه الحياة، وجهزه بما يناسبُ رجلًا غنيًّا، واتصل بي إن أتممتَ كلَّ شيء، وسأخبرك ما تفعل بعدها، بالطبع يا (عثمان) ستحتفظ بكل ما يتبقى من المال لك، إضافة إلى ذلك فأنت خادمنا الوفي وتستحق مثل هذا المبلغ تمامًا بعد أن تنتهي من مهمتك.

وجد (عثمان) بيتًا ما زال جيدًا رغم مرور أكثر من سبعين سنة على تشييده، أقرب منه للبادية من الحواضر، كان هذا البيت مطابقًا للمواصفات التي طلبتها الأميرة، لكنه لم يكن مهجورًا، بل كانت تسكنه أرملةٌ عجوز، كبيرة في السن، ورثتْ هذا البيت عن زوجها الذي قدم من البادية واشترى الأرض وبنى بها البيت والمزرعة، كان البيت يومًا ما يشبه القلعة الشامخة - هكذا أخبرته العجوز - به الكثير من العبيد الذين يزرعون الأرض ويقومون بتربية الماشية

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

ويخدمون الزوجين البدويين اللذين هربا من البحرين، بعد أن أحبّا بعضهما ولم تسمح لهما عائلتاهما بالزواج، اتفقا على الهروب وسرقة أموال عائلتيهما، وجاءا إلى هذه المنطقة المقطوعة من البشر، كي لا تعثر عليهما قبيلتاهما، اشتريا الأرض واقتنيا العبيد وعاشا هنا حياة سعيدة رغم انطوائهما، وخوفهما من كل عابر، أنجبا خمس بنات، ماتت منهن واحدة – كُبراهُن – وبقيت البنات الأربعة الأخريات دون زواج، لانقطاع الأب عن الناس، وها قد كبرت النساء ومات معهن الحلم بذلك الفارس الذي يأتي من اللامكان، ويخطفهن من بيت أبيهن، كما فعل هو من قبل مع أمهن.

حاول (عثمان) إقناع العجوز ببيع البيت، إلا أنها رفضت، معللة ذلك بأنها تريد لهذا البيت أن يكون مقبرة للعائلة بعد موت زوجها وابنتها الكبرى من قبل، وبعد موتها وباقي بناتها، فما كان من (عثمان) إلا أن حقق رغبة العجوز فقتلها وبناتها، والعبدين اللذين يعملان في المزرعة والأمة العجوز النوبية التي كانت تقوم بخدمة البيت، لم يستغرق التفتيش عن حجة البيت وقتًا كثيرًا، فقد كانت العجوز تحتفظ بها في صندوقٍ خشبيٍّ عتيق، عليه نقوش تكاد تكون مندثرة، لولا بعض أعذاق النخل والتمرات الخشبية البارزة التي تحيط بقفل الصندوق.

كان (عثمان) واسع الحيلة ولم يكن يقف شيءٌ أمام ما يريد، ذهب إلى المدينة، وبحث في دروبها المظلمة، واستطاع تبديل الأسماء،

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

والعبث بالتواريخ، فالمال يصنع كل شيء، في كل وقت، وفي كل مكان، وبعد أن اشترى العبيد والإماء، اتصل بالأميرة (فاطمة) وأخبرها بإنجاز المهمة، أخبرته الأميرة أنها ستبعث إلى طرفه السيد (ماضي بن مساند) مع جاريتين، وما أن يخبر العبيد بسيدهم، ويسلمه حجة البيت، يستطيع العودة لاستلام مكافأته.

بعثت الأميرة بـ (جميل) وأمه (ونيسة) وخالته (أنيسة) وأوصتها بالتعجيل في تعليمه، وطلبت منها مراقبته في التعامل مع العبيد، ومنعه من التقرب للإماء، وبالطبع التخلص من (عثمان النجدي) في اليوم ذاته الذي سيصلون فيه، كما أن عليهم جميعًا أن يكونوا مستعدين للعودة إلى مكّة ما أن تستدعيهم أو تطلب من أحدٍ ما إحضارهم، فالخطة تسير بشكلٍ ممتاز، وهي تنتظر الظروف المواتية لإتمامها.

في اليوم الذي أبلغها جاسوسها في قصر الأمير، بأمر هروب (ماكينزي) إلى السفارة البريطانية، عرفت الأميرة (فاطمة) بأن هذه هي الفرصة التي تنتظرها لإحضار (جميل) وتقديمه إلى العائلة.

قالت الأميرة لجاسوسها والذي كان يعمل في مكتب الأمير:

- لقد علمتُ بأمر هروبها، فأنت لم تعد جيدًا بنقل الأخبار.

فقال الجاسوس:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• والله يا سيدتي، لقد وصلت رسالة السفارة التي تخبر الأمير بأن جاريته لجأت إلى السفارة وتطلب تحريرها، قبل ساعتين فقط، وقد جئت لإبلاغكِ حالما سنحت لي الفرصة.

قالت الأميرة (فاطمة):

• لقد وصلني الخبر قبل ساعة، ووصلني كذلك خبر الذين ساعدوها في الفرار.

فقال الجاسوس:

• والله يا سيدتي، حتى الأمير لا يعرف بعد، من ساعدها.

قالت الأميرة:

• الذين ساعدوها ثلاثة؛ خادم الأمير الذي يشتري له العبيد، والخصي (رهيف) وعبد عجوز في بيت العبيد يقال له (ميمون) يطبب جروح العبيد.

فقال الجاسوس:

• هل يمكنني إخبار الأمير بذلك، كي أحظى بالقرب عنده أكثر، وبالتالي فسأكون على اطلاع بكل شيء قبل الآخرين الذين يعملون عندكِ وأخبروك بأمر الجارية قبلي.

قالت له:

• نعم، أنت تستحق أن تنقل هذا الخبر للأمير، فقد خدمتني أنا وأبي كثيرًا، لكن لا تقل له بأني أخبرتك، فذلك سيجعله يشك بأنك جاسوس وسيقتلك.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

فقال الجاسوس:

• بالطبع يا سيدتي، سأخبره بطريقتي الخاصة دون أن يكون لكِ علاقة بالأمر.

بعد أن ذهب جاسوسها، رفعت الأميرة (فاطمة) الهاتف على أبيها وقالت له:

• هناك أمر يقلقني يا أبي، هل تذكر عثمان؟

فقال الأب:

• نعم، ماذا به؟

قالت الأميرة:

• لقد طلبتُ منه أن يبحث عن أولاد الشيخ (عبد العزة) حتى نجلبهم ونجعلهم في صفنا، ولا نترك هذه المهمة للأمير فقط، فكل من جاء به الأمير قد جعله في صفه ضدنا.

فقال الأب:

• لطالما أخبرتُ أمكِ بأنكِ عن عشرة رجال، والله فكرة عظيمة، نعم هل وجد أحدًا؟

قالت الأميرة بقلقٍ مفتعل:

• نعم، لقد أخبرني منذ يومين بأنه وجد أحدهم في المنطقة الشرقية، على مسافة 100 كيلو متر من المدينة تجاه البادية في بيتٍ وحيدٍ هناك تحيط به مزرعة كبيرة، وقال بأنه سيذهب لمقابلته ويخبرني تفاصيل أكثر عن الموضوع، إلا أنه لم يتصل بعد، وأخشى أن يكون

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

قد حدث له مكروه، فتلك المنطقة ما زالت تسكنها قبائل تقطع الطريق وتقتل المسافرين وتنهبهم.

فقال الأب:

• سأرسل على الفور رجال شرطتنا في الشرقية، يبحثوا في تلك المنطقة عن ابن عمنا وعن (عثمان) وسأخبركِ بما يحدث.

قالت الأميرة:

• لقد كان (عثمان) متأكدًا يا أبي من وجود رجلٍ من نسل الشيخ هناك، فرأيي أن تذهب بنفسك وتحضره كي يبقى ممتنًّا لك ولا يخرج عن طوعك.

فقال الأمير الأب:

• فكرة جيدة ورأي سديد يا (فاطمة) سأذهب بنفسي وأعود به.

بعدما أغلقت الأميرة الهاتف مع أبيها، طلبت رقمًا آخر، رفع السماعة رجلها في الشرقية، والذي كان حلقة الوصل بينها وبين مربيتها (أنيسة) وطلبت منه توصيل هذا الأمر إلى (أنيسة) على الفور:

• اتركي سيدكِ، وخذي وصيفتكِ معكِ، وعودي مع الرجل إلى الشرقية، الآن، وتعالي إلى مكة على الفور.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

18

عندما أدخلوا (ماكينزي) على الأمير، أمرها بالجلوس، ثمَّ طلب من إحدى محظياته أن تسقيهم النبيذ، وتعود للجلوس معه، في أُرجوحته الفارهة.

كان الأمير يجلس في الحديقة الداخلية لقسم السراري، حيث أمر ذلك اليوم كلَّ سراريه بالتعري والحضور إلى الحديقة وممارسة أي شيءٍ يرغبن به، منظرٌ يشبه جثث الحيوانات المسلوخة، المعلقة في مسلخٍ حكومي، غير أن الجثث في مسلخ الأمير؛ تتحرك.

قال الأمير:

• هل تصورتِ أن بإمكانكِ الإفلات من قبضتي؟ أم أن الكتب التي قرأتها صورت لكِ بأن هناك من يستطيع أن يجبرني على فعل شيءٍ لا أرغب به؟ لن تفهمي ما سأقول، لكني سأقوله بالرغم من ذلك، لن تستطيع أي قوة في الكون أن تجبرني على شيء، هل تعلمين لماذا؟ لأن الله معي، وهو من وهبني الملك، كي أحافظ على دينه وشريعته وحقوق عبيده الأحرار،

لقد أمرنا الله ونبينا بالإحسان إلى عبيدنا، وإطعامهم مما نأكل وإلباسهم مما نلبس، فهل تعرفين ما تفعل باقي الأمم بالعبيد؟ كلٌ

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

الدنيا لديها عبيد، هكذا خلق الله الناس، أحرارًا وعبيدًا، فهل نعترض على حكمة الله ورحمته بنا؟ لقد أطعمتكِ مما آكل وألبستكِ مما ألبس، ويعلم الله أني امتثلت لشريعته ووصايا نبيه، لكنكِ عبدةٌ عاقة، هل تعلمين بأن الإسلام قد كفّر العبد العاق لسيده؟ هناك حديث عن النبي (ﷺ) أنه قال:

(أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ مِنْ مَوَالِيهِ فَقَدْ كَفَرَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ) وبما أنكِ لم ترجعي برغبتكِ، فأنتِ لا تزالين كافرة، ويحق لنا معاقبة الكافر، والقتل هو أهون العقاب.

ثم نادى الأمير بعض المخصيين وقال لهم:

- خُذوها، اقطعوا لسانها، وارموها في زنزانة وحدها، في القبو الخارجي للقصر، ولتكن هدية مني إلى بيت العبيد، فمن شاء من العبيد معاشرتها فلا تمنعوه، حتى لو وصل عددهم إلى مائة عبد في اليوم.
-

في اليوم نفسه الذي قطع فيه لسان (ماكينزي) وصل الأمير (ماضي بن مساند) إلى مكّة، وتمَّ قبوله والترحيب به داخل العائلة، وحلَّ ضيفًا في قصر الأمير سلطان.

بعد فترة وجيزة، بعث خلفه الشيخ (مسعود) وأهداه قصرًا وأموالًا، ووعده بمبلغ مالي كلَّ أول شهر، مثل بقية أمراء العائلة، كما

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

لمح له بأنه يمكنه التقدم إلى وظيفة في مكتب أحد أبنائه الاثنين والخمسين في أي وقت.

الشيخ (مسعود) تزوج أكثر من أبيه الشيخ (عبد العزّة) وأنجب ذكورًا ضعف ما أنجب أبوه تقريبًا، ولما وصل إلى الحكم، أبعد إخوته عن المراكز المهمة في الدولة وجعل معظمها في أيدي أبنائه، حتى صار يطلق عليهم) الشيوخ الصغار) فلقد أصبح الأبناء، المرشحون الحقيقيون لخلافة أبيهم، وخصوصًا ابنه الأمير (أحمد) فقد كان الشيخ (مسعود) يفكر جديًّا بإزاحة أخيه الأمير (قيصر) عن ولاية العهد، وتنصيب ابنه الشيخ الصغير (أحمد) بدلًا عنه، لكنه كان يخشى تمرد العائلة عليه، لمخالفته وصية أبيه في أن يكون الحكم في أولاد الشيخ (عبد العزّة).

الشيخ (مسعود) كان يحاول رشوة العائلة، حتى يقبلوا بتولي ابنه الأمير (أحمد) ولاية العهد، لذلك فهو حاول رشوة الأمير (ماضي بن مساند).

كان معروفًا عن الشيخ (مسعود) وأولاده، البذخ الشديد والعبث بأموال الدولة، حتى أصبحت الدولة غير قادرة على الإيفاء بالتزاماتها الدولية، بسبب تفريغ أموال النفط في جيوب الشيوخ الصغار، لكن الشيخ (مسعود) لم يكن صاحب القوة والسلطة الوحيد في البلاد، بل كان هناك قوة تكاد تكون فاعلة أكثر ومؤثرة

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

أكثر داخل البلاد، وداخل العائلة، هي قوّة وسلطة الأمير (قيصر) ولي العهد.

قام الأمير (قيصر) بإنشاء منصب رئيس الوزراء، وسحب إليه بعض السلطات التي كانت من سلطات الشيخ (مسعود) وحده، في زمن والده الشيخ (عبد العزّة) كما تولى الأمير (قيصر) بنفسه رئاسة مجلس الشورى، ووزارة النفط ووزارة الداخلية، ووزارة الخارجية، وأنشأ كذلك حرسًا خاصًّا به ينافس إن لم يكن أقوى من الحرس الوطني نفسه، والذي كان يأتمر بأمر الشيخ (مسعود) مباشرةً.

مع انتقال الأمير (ماضي) إلى قصره، بدأت الأميرات الكبيرات سنًّا والعوانس بالتهافت عليه، في النهاية هو أمير جديد وسيمٌ وأعزب، فقد قضى معظم حياته في البادية، مختبئًا من الناس كي لا يكشفوا هويته الحقيقية، وهي أنه حفيد الشيخ (عبد العزّة آل سفود).

الأمير (ماضي) كان أميرًا ظاهريًّا، أما في الحقيقة فهو عبد الأميرة (فاطمة) إنه يدرك جيدًا بأن المرأة التي حولته من عبد إلى أمير، قادرة على مسخه من أمير إلى حشرة.

بعثت إليه الأميرة (فاطمة) مربيتها، خالته (أنيسة) بعد شهرين؛ تأمره بخطبتها، حدد موعدًا مع الأمير (سلطان) وفي اللقاء خطب منه ابنته (فاطمة) فطار الأمير فرحًا، فهي صفعة للأمير (قيصر)

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

وضمان وقوف الأمير (ماضي) إلى صفه في الصراع الداخلي للعائلة، وعلاج لابنته (فاطمة) من العزلة.

قبل فورًا وأرسل لابنته الأميرة (فاطمة) يعلمها بالأمر ويسألها عن رأيها، فقالت الأميرة (فاطمة):

• وهل هناكَ رأي لي، بعد رأيكَ يا أبي؟ افعل ما تراه مناسبًا، فأنا دائمًا وأبدًا طوع أمرك.

عندما علم الأمير (قيصر) بأمر الخطبة، بعث في طلب الأمير (ماضي) وكان هذا اللقاء، أول لقاء رسمي يجمع بين الأمير ولي العهد وبين الأمير (ماضي بن مساند) فقد تلاقيا قبلًا في اجتماعات العائلة، لكن الأمير (سلطان) كان لا يسمح لأحد من الأمراء بالخلوة مع الأمير (ماضي).. بعد الترحيب والمجاملات المعتادة بين الأمراء، قال الأمير لـ (ماضي):

سمعتُ بأنكَ خطبتَ طليقتي (فاطمة) وهذا لا يزعجني أبدًا، هناك الكثير من المطلقات في عائلتنا تزوجن مجددًا، لكني أفكر فيك، فأنت ابن أخي، ومن واجبي أن أنصحك، هل تعلم يا سمو الأمير (ماضي) بأن الأميرة المطلقة التي أنجبت من أمير، لا يحق لها الإنجاب مجددًا إن تزوجت بغيره؟

فقال الأمير (ماضي):

• نعم أعلم ذلك، فقد أخبرني الأمير (سلطان) بقوانين العائلة، كما أنه قال أن علينا الالتزام بهذه القوانين لمصلحة العائلة العليا،

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

لذلك فعلى الأميرة (فاطمة) أن تخضع لحقن مصلٍ ما، في الرحم، من شأنه أن يجعلها عاقرًا.

فقال الأمير:

• ما دمت تعرف ذلك، فلماذا تريد الزواج بـ (فاطمة)؟ أنت على حدّ علمي أصبح عمرك الآن ثلاثين عامًا وليس لديك ذرية، وهذا أمر لا يعود إليك بل يعود للعائلة، ونحن الجيل الأول وحتى الجيل الخامس، مأمورون بزيادة ذرية الشيخ (عبد العزّة) فيجب عليك أن تتزوج بأربعة على أقل تقدير وتنجب منهن، وكما تعلم فأربع نساء منجبات أفضل من ثلاث نساء وعاقر واحدة.

فقال الأمير (ماضي):

• في الحقيقة أنا أريد أن أرد معروف سيدي الأمير (سلطان) فهو من انتشلني من البادية وجاء بي إلى بيت عائلتي، أنا أشعر بأنه صاحب فضلٍ عليَّ، وإن أنت أمرتني يا سمو الأمير بعدم الزواج من الأميرة (فاطمة) فسأكون تحت أمرك، ولن أخالف لكَ أمرًا.

وقف الأمير مغضبًا وقال:

• عليك أن تعرف من أنت، أنت ابن الشيخ (عبد العزّة).. أنت من آل سفود، تكلم مثلهم، ولا تتكلم مثل العبيد، الأمير (سلطان) ليس سيدك، بل ابن عمك ولك من الحقوق مثل ما له، ولا تتملق مثل خدمي وعبيدي، فأنت أمير، اذهب وتزوج من (فاطمة) فهي كفيلة بجعلك أميرًا بحق، وسآمر باستثناء (فاطمة) من

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

مصل العُقر، يمكنها أن تنجب لك، هذا مكافأة لك، لقولك بأنكَ لن تخالف لي أمرًا، فلربما احتجت صوتك داخل اجتماع العائلة.

راح الأمير (ماضي) يقبل كتف سمو الأمير، ويشكره على نصائحه القيمة والمخلصة لأبناء الأسرة، فرضي عنه الأمير وقال له:

• ليست هذه، هديتي الوحيدة إليك، بل هناك هدية أخرى، إنها جارية لم ترَ عيناكَ أجمل منها، لكنها للأسف مقطوعة اللسان، ومقطوعة الرحم.

ثم ضحك الأمير عاليًا وأضاف:

• أجمل شيئين في المرأة؛ أنها لا تتكلم ولا تحيض.

وطلب من مدير مكتبه، تحرير ورقة نقل ملكية (مكّة) منه، إلى ملكية الأمير (ماضي بن مساند) وطلب من بعض خدمه تجهيز (مكّة) وإرسالها إلى قصر (بن مساند) على الفور.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

19

بعدما عاد الأمير (ماضي) وجد مربية الأميرة (فاطمة) (أنيسة) تنتظره في قصره، كانت مكسورة الروح تمامًا، من يعرف (أنيسة) يعلم بأن العالم لا يستطيع خدشها، فلا بدَّ من وجود شيءٍ ما، من خارج العالم قد كسرها.

انتظرت (أنيسة) حتى أمر الأمير (بن ساند) الجميع، بتركه وحيدًا مع (أنيسة) ثم طلب منها اللحاق به إلى مكتبه الذي كان حاله هو الآخر مثل حال قاعة الاستقبال، كان المكتب مليئًا بالحشود الذين كانوا ينتظرون أوامره، أمر الأمير (ماضي) حشود مكتبه بالمغادرة، ومع صوت إغلاق الباب، بعد آخر الخارجين، من الحرس، والخدم، والعبيد، ألقت (أنيسة) بنفسها على صدر (جميل) وراحت تبكي بصمت، أعطاها (جميل) مساحة كي تطلق فيها خيول حزنها الجامح، ولما امتلأت المساحة بالحزن ولم تستطع (أنيسة) الكلام، سألها (جميل):

- ما الذي حدث يا خالة؟ هل الأميرة (فاطمة) قست عليكِ مجددًا حتى جعلتكِ بهذه الحالة؟

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

فقالت (أنيسة) بعدما فتحت فمها للتحدث أكثر من مرّة، وفي كلِّ مرّة يختنق الكلام، فلا يخرج من صدرها سوى صوت أنفاسها المخذولة، وكأنها حشرجة غريق:

- لقد ماتت أمك يا (جميل).

دفع (جميل) خالته (أنيسة) بلطف، وذهب إلى أقرب كرسيّ، وجلس.

سادت حجرة المكتب الكبيرة، لدقيقة، موجة من الصمت العارم، تبدلت خلالها ملامح (جميل) ولون وجهه، من الانبساط إلى القبض إلى اللون الرمادي إلى الرمادي الأسمر المشوب بصفرة، حتى أصبح وجهه بلا ملامح وبلا لون وكأنه قطعة ريح توقفت فجأة، رفع رأسه نحو خالته التي كانت تحدق به، مع شعورٍ خفيّ بالخوف، من هذا الإنسان الذي لا تعرفه، وقال لها:

- هل يمكنني رؤيتها؟

فقالت (أنيسة):

- أوامر الأميرة واضحة، لن تراها ولن تؤجل موعد العرس، كما أنها أرسلتني إليك، وأمرتني بالبقاء عندك هذا اليوم، بعد أن طلبتُ منها الوقوف على قبر توأمي (ونيسة) فرفضت بشدّة، وقالت أنها ستأمر العبيد بدفنها في مقبرة العبيد، ولن تعلمني أو تعلمك مكان قبرها، فهي لا تريد لأي هفوة أن تفشل خطتها الناجحة حتى هذه اللحظة.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

ثار (جميل) ضاحكًا كبركانٍ نشط فجأة، وقال لـ (أنيسة) وهو مستمرٌّ في الضحك:

- لا خلاص للعبد من قدره، حتى وإن صار أميرًا.

ثمّ سألها بجدية:

- كيف ماتت؟

فقالت (أنيسة):

- بهدوءٍ ذهبت إلى النوم ولم تعد.

بقي (جميل) سارحًا، ولم يقل شيئًا، وكأنه ذهب إلى النوم هو الآخر، تركته (أنيسة) في المكان الذي ذهب إليه وحيدًا، وخرجت من المكتب، ثم توجهت حيث قسم الحريم في القصر الأميري، توقفت لحظة أمام الباب المؤدي إلى قاعة استقبال الأمير (بن مساند).. كان أحد الحُراس ينتظر قدوم الأمير (ماضي) لتسليمه (ماكينزي).. جمال (ماكينزي) حتى وهي متعبة، استطاع إيقاف (أنيسة) وخطفها من حزنها للحظة، ثم أنها استمرت في طريقها ودخلت الحرم، بقي (جميل) وحيدًا في المكتب لأكثر من ساعة، ثم قام ونظر في المرآة ورتَّب هندامه ثم ذهب إلى قاعة الاستقبال من بابها الخلفي، قام برن جرس الاستدعاء، فدخل رئيس الخدم، وأخبره بوصول (ماكينزي) فطلب منه الأمير (ماضي) إدخالها، دخلت (ماكينزي) يتبعها الحارس الذي أحضرها، وقفت أمامه لا مبالية، وراحت تنظر إلى عيني سيدها الجديد، شعر (جميل) بأنه ليس أمام

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

عبدة، بل أمام سيدة حرّة، فأطرق هو ببصره إلى الأرض، ثمّ تذكر أنّ الحارس الذي جلبها ما زال واقفًا، فرفع بصره نحوه وقال له:

- كيف كنتم تتواصلون معها؟

فقال الحارس:

- أنا لا أعلم عنها شيئًا يا سيدي، فقد طلب مني قائدي توصيلها إلى قصركم.

قال الأمير (ماضي):

- عُد إلى مكان عملك إذًا.

فانحنى الحارس للأمير (ماضي) وأدار وجهه ثم انصرف.

حاول (جميل) أن ينظر إليها، لكن نظرة عينيها تذكره بأنه ما زال عبدًا في حضرة سيدته، أطرق سريعًا وأدار وجهه ثم أعطاها ظهره ومشى قليلًا، فكر في استعمال الإشارة، لكنه وجد الأمر معقدًا، فلم يحاول، ضغط على زر جرس الاستدعاء، فجاءه رئيس الخدم، فأمره الأمير (بن مساند) بأخذ هذه الجارية إلى جناح زوجته، وأمره بأن تكون من وصيفاتها، عندما يحضر زوجته يوم الخميس القادم.

كان الأمير (بن مساند) قد اتفق مع الأمير (سلطان) والد الأميرة (فاطمة) على إجراء الزواج يوم الخميس القادم، عشية ليلة الجمعة، كانت بطاقات الدعوة قد وزعت إلى كل قصور العائلة، ما عدا قصر الأمير، تجنبًا للإحراج الذي قد يحدث.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

اليوم هو الاثنين، لقد بقي ثلاثة أيام على حفل العرس المرتقب، العبيد كانوا يعملون ليل نهار لترتيب جناح الأميرة وتحضير لوازم الحفل، بينما كانت نساء العائلة المالكة، تتسابق على شراء الفساتين من المحال العالمية، من مصممين معروفين، يصنعون لهن الثياب خصيصًا.

بعد قليل دخل رئيس الخدم على الأمير، يخبره بموعده مع المعلم الذي بعثه الأمير (سلطان) لتعليمه أصول حفلات زفاف العائلة، وطريقة التصرف التي تليق بأمير من العائلة.

في الحقيقة، فكرة المعلِّم، كانت فكرة الأميرة (فاطمة) في الأساس، وهي التي طلبت من والدها ذلك، وأخبرته بأن الأمير لم يتربى على حياة الأمراء، وهي لا تريد أن يكون زوجها موضع تندر بين أمراء العائلة.

قال الأمير (بن مساند) لرئيس خدمه:

- أين المعلّم الآن؟

فقال رئيس الخدم:

- لقد جعلناه ينتظر سموّكم في صالة الأفراح في القصر.

قال الأمير (بن مساند):

- سأكون عنده في الحال.

فقال رئيس الخدم:

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

• في البـاب رئـيس خـدم الأمـيرة (فاطمـة) يريـد مقـابلتكم يا سيدي.

قال الأمير (ماضي):

• أدخله الآن.

"لا بـدَّ أن هنـاك أمـرًا في غايـة الأهميـة، تريـد الأمـيرة (فاطمـة) إخبـاري بـه، لـذلك فقـد أرسـلت رئـيس خـدمها، إنهـا عـادةً ترسـل مربيتهـا (أنيسـة).. لقـد أكـدت علـيَّ عـدم اسـتخدام الهـاتف في مخاطباتنا، خشية أن يكون الأمير يراقب مكالمات العائلة."

هكـذا حـدث (جميـل) نفسـه بينمـا ذهـب رئـيس خدمـه ليـأذن لمبعوث (فاطمة) بالدخول، قال رسول الأميرة (فاطمة):

• إن الأمـيرة (فاطمـة) أرسـلتني يا سـيدي لإحضـار مربيتهـا (أنيسة) والجارية (مكّة) التي بعث بها الأمير.

نظـر (جميـل) في عيـني رسـول الأمـيرة، وسـرح قلـيلًا، بينمـا وقـف رئـيس خـدم الأمـيرة بـلا حـراك، عينـاه في الأرض، كعـادة الخـدم في التعامل مع الأمراء.

ضـغط الأمـير (بـن مسـاند) زر جـرس الاسـتدعاء، وطلـب مـن رئـيس خدمـه، إبـلاغ (أنيسـة) بمرافقـة الجاريـة (مكّـة) والرسـول إلى قصـر الأميرة (فاطمة).

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

20

حين دخلت (أنيسة) على الأميرة (فاطمة) بصحبة (ماكينزي) كانت الأميرة مشغولة بقياس فستان زفافها مع المصمم العالمي (كريستيان ديور) الذي جاء خصيصًا إلى مكّة لصنع ثلاثة فساتين، فستان زفاف وفستان سهرة للأميرة (فاطمة) وفستان ثالث للأميرة (لطيفة) والدة الأميرة (فاطمة).

أشارت الأميرة للمصمم والجواري بالخروج، ثم قالت لـ (ماكينزي):

• لا أدري كيف أبقاكِ الأمير الغبي حيّة حتى هذه اللحظة، ربما لأنه يحبكِ، أقول ربما، لأني أعرفه، إنه لا يعرف الحبّ، بالرغم من أنكِ ما زلتِ صغيرة، إلا أنكِ ورثتِ كره الإسلام من أبويكِ النصرانيين الكافرين، ماذا تودين أكثر مما حصلتِ عليه؟ هناك الكثير ممن يتمنون عُشر معشار ما أنتِ فيه، ذهب، مجوهرات، حرير، أرقى أنواع الطعام وأفضل أنواع النبيذ، لكنكِ رفضتِ كلّ ذلك وهربتِ إلى سفارة النصارى، تنوين تشويه صورة عائلتنا ودِيننا أمام العالم، أنا لن أكتفي بقتلكِ، بل سأجبركِ على الاعتراف بأننا أسيادكِ، وأسياد هذا العالم.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

ثم توجهت بالكلام إلى (أنيسة) وقالت لها:

• خُذيها يا (أنيسة) واسكبي ماء النار (الأسيد) على وجهها، حاذري أن تصاب بالعمى، فأنا أريدها أن ترى باطنها الكريه، كلما نظرت إلى وجهها، أريد لهذا الوجه الذي يفتن الأمراء، أن يجعل العبيد يشعرون بالغثيان منه، ثم بعد ذلك أريدها أن تبقى هنا، في قصري، تهتم بتنظيف القصر، فالجواري القبيحات لا ينفعن لشيء آخر.

بعدما عجزت (أنيسة) عن سحب (ماكينزي) دخل ثلاثة من الحراس وقيدوها، بينما كانت (ماكينزي) تصرخ بلسانٍ مقطوع، أشارت الأميرة إلى أحد الحراس الثلاثة، وأمرته بمناداة العبد المخصي (قاطع).. بعد قليل دخل عبدٌ أسودٌ ضخم، يشبه حيوان الماموث المنقرض، وقال:

• نعم يا سيدتي، يقول الحارس بأنكِ طلبتني.

فأشارت له الأميرة بالاقتراب، ثم همست في أذنه بشيء، انحنى بعدها وخرج.

في اليوم التالي أمرت الأميرة (فاطمة) طبيبها، بمعاينة (ماكينزي) مع تأكيدها أنها لا ترغب بعلاج وجهها، بل تريد منه أن يطهر الحفر والجروح، ويجعلها تلتئم بسرعة، اشمأز الطبيب من منظر وجه (ماكينزي).. عيناها وما حولهما، لم يمسهما شيء، اختفى حاجباها وغارا في حفرة شبه عميقة، جبينها أصبح كطريقٍ طينيٍّ وعر، مليئًا

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

بالحُفَر والثقوب، جلد وجهها الذائب يشبه طينًا رائبًا، اختفى كذلك وجنتاها، وغار الجرح عميقًا، حتى أكل لحم الخدين ووصل إلى العظم، شفتها العليا لا وجود لها، تساوت مع أرنبة أنفها التي ذابت ولم يتبق من الأنف غير ثقبين مسدودين بجلدٍ أحمر، شفتها السفلى نصف مثقوبة، ويمتدُّ منها جدول نار حتى أسفل رقبتها، عقَّم لها الجروح، وخلافًا لأمر الأميرة (فاطمة) فقد حقنها بمصل بنسيلين ومصل مورفين.

حفل زفاف الأميرين، كان باذخًا، طغت عليه المجوهرات وأواني الذهب والعطور الغالية، وأحاديث السياسة وصراعات العائلة وتياراتها، حضر جميع أفراد العائلة تقريبًا، وتخلف الشيخ (مسعود) الذي كان مدعوًّا، بينما غاب الأمير (قيصر) وهو غير مدعو من الأساس، سارت الأمور بصورةٍ جيدة، ما عدا حدثًا بسيطًا، ترك بعض التوتر في البداية، لكنه سرعان ما اختفى في حمّى عرض العضلات بين التيارات المتنازعة داخل العائلة.

كان الشيخ الصغير (أحمد ابن الشيخ مسعود) قد غادر الحفل مبكرًا، بعدما تضايق من جواب الأمير (سلطان) والد الأميرة (فاطمة) على تعليقٍ استفزازي أدلى به بحضور الأمير (سلطان).

قال الشيخ الصغير (أحمد):

- أنا لا أرى أي علامة على أن الأمير (ماضي بن مساند) أميرًا بحق، إنه يتصرف ويتكلم كالأبله.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

فرد عليه الأمير (سلطان):

• لـو كنـت تربيـتَ ونشـأتَ كـالأمير (ماضـي) في الباديـة، لما اختلفتَ عنه كثيرًا.

وبعـد نهايـة الحفـل وتوديـع المـدعوين، ذهـب الأمـير (ماضي بن مسـاند) إلى حجـرة الزوجيـة، حيـث كانـت الأمـيرة (فاطمـة) تنتظره، كانـت الأمـيرة (فاطمـة) ممـددة علـى أريكـة، بيـدها قنينـة ويسـكي، ترتشـف منهـا بـدون كـأس، كانـت ثملـة وكئيبـة وتتقـد غيظًـا، بقـي (جميل) واقفًـا ينتظـر مـا تأمـره بـه الأمـيرة، وقفـت الأمـيرة وراحـت تمـزق ثيابهـا، بعـد أن عجـزت عـن خلعهـا، لتزنحهـا، وهـي تتفـوه بالشـتائم اللاذعـة، على العائلة والقدر والحظ، ثم قالت:

• يحسـدني الأمـيرات عليـك.. هـه.. إنهـن يتصـورنَّ أنـكَ أمـير، كنـتُ أفكـر في ردّ فعلهـن، لـو علمـنَ أني أتـزوج مـن عبـد، أحسـتُ أني رخيصـة، مثـل أي عـاهرة، كيـف يمكنـني أن أنسـى أني أمـيرة وأنـك مجـرد عبـد؟ أيـن العـدل؟ أيـن المنطـق في كـلِّ هـذا؟ بمـاذا يختلفن بنـات عمـومتي عـني؟ يَحتضـنَّ أمـراءً وأنا أنام بقـرب عبـد، اسمـع يا (جميل) أريـدكَ ألا تنسـى أنـك عبـد، أنا مـن جعلـتُ منـكَ أميرًا وسـأجعل منكَ شيخًا، لكنـكَ في النهايـة عبـدي، أفعـل بـكَ مـا أريـد، أنـت لسـت حرًّا، ربمـا حـين ألـدُ منـكَ ذكـرًا ويعتلـي العـرش، أفكـر عنـدها بعتقـك، سـتنام علـى الأرض هنـا، قـرب الحـائط، لـن تنـام معـي علـى السـرير، كـي لا تنسـى أنـك عبـد، والآن اخلـع ملابسـك، لا أشـعر برغبـة في الجمـاع

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

هذه الليلة، سأنام على السرير وأباعدُ بين قدميَّ، وأريدك أن تلحس فرجي حتى أنام، أريدُ أن تقنعني بأنك تستلذُّ باللعق، وأن ما يخرج من فرجي هو أحلى وأطيب من العسل، لا تتصور أني لا أعرف أنك تشعر بالقرف من هذا العمل، أعلم ذلك جيدًا، لقد أخبرتني خالتك (أنيسة) بشعورك وشكواك.

استلقت الأميرة (فاطمة) على سريرها، وأمسكت السوط بيدها اليمنى كعادتها، فهي تضرب به (جميل) كلما أخطأ أو فتر أو توقف، ثم فتحت الأميرة ساقيها، تقدم منها (جميل) عاريًا وقبل أن يبدأ، قالت له الأميرة بخبث:

- لم تسألني عن خالتك (أنيسة) ألم تفتقدها هذه الليلة؟

ثم أنها أجابت على سؤالها بعد أن رأت (جميل) صامتًا، متخذًا وضع الحبو، بانتظار أمرها له بالبدء:

- لقد قتلتها قبل يومين، فدورها قد انتهى عند هذا الحدّ.

ثم أشارت له بالبدء، فراح يلعق ويلعق، حتى أحست بأن هناك بللًا على خديه، راح يسيل على فخذيها، لكنها لم تعطِ للأمر أهمية، وغفت وهي تشعر بالانتشاء.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

21

تنافست تيارات العائلة على ضمّ الأمير (ماضي بن مساند) لهم، فطلب المشورة من زوجته الأميرة (فاطمة) كعادته، فقالت له:

• أريدكَ أن تبقى على الحياد يا (ماضي) مع الجميع، حتى مع أبي، لا نريد أن نراهن على حصانٍ خاسر، الشيخ (مسعود) أفلس الدولة لشدة بذخه وبذخ نسائه وأولاده الشيوخ الصغار الاثنين والخمسين، إنه يحاول إزاحة الأمير (قيصر) عن ولاية العهد وتنصيب ابنه الأمير (أحمد) وليًّا للعرش، هذا بالطبع يخالف وصية الشيخ (عبد العزّة) ويحرم باقي أولاده من الوصول إلى العرش، أعمامنا الكبار لن يروقهم ذلك وسوف يتحالفون مع الأمير (قيصر) بالرغم من كرههم له، وسيجبرون الشيخ (مسعود) على التراجع عن طموحاته، الأمير (قيصر) ولي العهد، يريد السلطة له، وهو يملك السلطة الأكبر في البلاد على أرض الواقع وسيجبر الشيخ (مسعود) على تسليمه كلّ صلاحياته أو ربما يقتله، أنا لا أستبعد أي شيء، هناك تيار ثالث وهم الأمراء المتأثرون بالرئيس (عبد الناصر) وأوهام الوحدة العربية، وهؤلاء خاسرون لا محالة، أما التيار الرابع والذي يمثله الأمراء الذين درسوا في الغرب ويتبنون نظام الغرب، ويحاولون صياغة دستور

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

للبلاد، وتحديد واجبات الحاكم والمحكوم، فهم أضعف التيارات داخل العائلة، لأن فتوى واحدة من آل السيخ تجعلهم كفرة ومتعاونين مع الغرب، من أجل القضاء على الإسلام، إذا صدقت ظنوني، فإن التيار الخامس هو من سينتصر أخيرًا وسيحكم البلد والعائلة وسيطيعه الجميع - طبقة الشعب وطبقة الأمراء - خوفًا وطمعًا، وهم الأمراء الصديريون الثمانية، أبناء الأميرة (قسمة بنت حمود الصديري) زوجة الشيخ (عبد العزّة آل سفود) إنهم يستولون على إمارات الرياض ومكّة وجدة بالطبع والمدينة ومعظم الإمارات المهمة الأخرى، والوزارات الكبرى، والسفارات في الدول العظمى، يعملون بهدوء ولا يثقون إلا بأشقائهم من أمهم وأبيهم.

فقال الأمير (ماضي بن مساند) لزوجته وهو يجلس عند قدميها:

- هل تنصحيني أن أكون معهم إذًا؟

قالت الأميرة (فاطمة):

- لن يثقوا بك، فهم ليسوا بحاجة إلى أمراء بل إلى عبيد، وأنتَ عبدي أنا وحدي، وأريدك أن تجعل هذه العائلة المغرورة القذرة كلها، عبيدًا عندك، على أي حال، كن على الحياد هذه الفترة ولكل مقامٍ مقال.

في تلك الفترة عاشت (ماكينزي) كأي عبدة من الدرجة العاشرة في قصر الأميرة (فاطمة) في مكّة، كانت تنظف كلّ شيءٍ وفي اليوم التالي تعيد ما نظفته في الأمس وهكذا وكأنها حمارٌ معصوب العينين

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

مربوطٌ على ناعور، وظيفته هي الدوران إلى الأبد، وكان كلما احتاج الأمراء الآخرون عبدة أخرى تساعد في التنظيف، كانوا يرسلونها إليهم.

في السنوات الخمس اللاحقة، ازدادت مسافة الخلاف بين الشيخ (مسعود) وولي عهده الأمير (قيصر) ووصلت إلى مرحلة حرجة جدًّا، التفَّ أكثر الأمراء من ليبراليين وناصريين وطامعين بالنفوذ حول الأمير (قيصر) مما جعل الشيخ (مسعود) يفكر بالتخلص منه، مستغلًّا بعض الأمراء الذين كان يغدق عليهم من خزينة الدولة المهددة بالإفلاس، لكن الحال استمر لسنتين في عمليات كر وفر بين الأخوين، حتى جاءت سنة 1962

في تلك السنة وصل الصراع إلى ذروته بين الأخوين، سلّح الشيخ (مسعود) خواصه وكانوا 1500 شخص للإغارة على ولي العهد وقتله، وكذلك فعل الأمير وسلح الجيش والشرطة وأمرهم بالمثل، تدخل كبراء العائلة (أعمام الأميرين) إخوان الشيخ (عبد العزّة) واتفقوا مع باقي أفراد العائلة، باستثناء الأمراء الصديريين الثمانية، الذين كانوا على الحياد، يترقبون ما تؤول إليه الأمور في هذه الفترة، تمَّ الاتفاق على أن يتنازل الشيخ (مسعود) عن كلّ صلاحياته إلى الأمير (قيصر) ولي العهد، مع بقاء الشيخ (مسعود) في منصبه كشيخٍ صوري، لكن الشيخ (مسعود) رفض الأمر قائلًا:

"أنا لست الملكة إليزابيث."

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

في الثلاثين من شهر أغسطس سنة 1962 دخلت بريطانيا على الخط، قام رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت (أنتوني سميث) بزيارة سرية إلى جدّة، والتقى في محل إقامته في السفارة البريطانية بالأمير (قيصر) ولي العهد، تمَّ خلال اللقاء شرح وجهة نظر الأمير في الصراع بينه وبين أخيه الشيخ (مسعود) وطلب من رئيس وزراء بريطانيا أن تسانده بريطانيا في هذه الفترة، لأنه صديقهم الدائم، وتتخلى عن موقفها المطاطي في هذه المسألة.

أخرج السيد (أنتوني) ملفًّا كبيرًا وأعطاهُ إلى الأمير، تصفح الأمير الملف، بينما كان السيد (أنتوني) يتصفح وجه الأمير، اعتلى وجه الأمير غبار الذل والانكسار، ولم يستطع أن يرفع بصره بوجه السيد (أنتوني).. انتهى الأمير من تصفح الملف، وبقي مطرقًا برأسه، مدَّ يده وتلمس جلد صدره فوق عضلة القلب، وفركها قليلًا، ثم قال للسيد (أنتوني):

- أنا على استعداد لأن أسمع مقترحاتك.

قال السيد (أنتوني):

- الصور في الملف، تم التقاطها على مدى ثمان سنوات، أنت بالطبع تعرف الأماكن الملتقطة فيها، إنها من داخل قصرك، وقصر الشيخ (مسعود) وبقية قصور العائلة، الصور تثبت بما لا يقبل مجالًا للشك، بأنكم تملكون عبيدًا من كل الجنسيات والأعراق، وأنكم تعاملونهم بمنتهى القسوة والوحشية، بالطبع فإن سموكم قد شاهد صور

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

التعذيب، والعُري والجثث المتفسخة والوجوه المستغيثة، والحيوانات وهي تنهش بهم وهم أحياء، لو نشرت هذه الصور فسيسقط حكمكم على الفور، أؤكد لك أن الأمم المتحدة ستتخذ فورًا قرارًا بإرسال جيوشها، لتحرير العبيد وتغيير نظام حكمكم، لقد أتيت إلى سموكم أولًا، لأنك كما قلت سلفًا، بأنك صديقنا الدائم، لذلك فحكومتي مستعدة للوقوف معك، في صراعك مع الشيخ (مسعود) ونقل كامل صلاحياته إليك، في حالة أنك وافقت على إصدار قرار تحريم العبودية.

فقال الأمير:

- وماذا سيحدث لو أني رفضت إصدار هذا القانون؟

قال السيد (أنتوني) بكل ثقة:

- سأذهب إلى الشيخ (مسعود) وسأعرض عليه العرض نفسه وإن رفض فسأذهب بهذا الملف إلى الأمم المتحدة.

فقال الأمير:

- أمهلني أسبوعًا وسأصدر قرار تحريم العبودية، لا داعي لذهابك إلى الشيخ (مسعود) أو إلى الأمم المتحدة.

قال السير (أنتوني):

- هناك أمرٌ آخر، أريدكَ أن تحرر السيدة (ماكينزي) على الفور، وتبعث بها كامرأة حرّة إلى هنا، فمن هذه اللحظة السيدة (ماكينزي) هي ضيفة العرش البريطاني.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

فقال الأمير باستغراب:

- (ماكينزي)؟!!

رد عليه السيد (أنتوني) بابتسامة المنتصر:

- ومن باعتقادك زودنا بهذه الصور والمعلومات الدقيقة الموثقة، عن وضع العبيد في قصوركم؟ منذ ثمان سنوات، عندما تمَّ الاتفاق، على إرجاع (ماكينزي) إليك، بعد أن لجأت إلى سفارتنا، رفضت الرجوع وطالبتنا بقتلها، لكن السيد (تيلهام) سفيرنا الذي طرده سموكم، أقنعها بالعودة، والعمل على كتابة تقارير عن حال العبيد، وزودها بكاميرا خاصة ودرَّبها عليها، كان السيد (تيلهام) مؤمنًا بها، وبقدرتها على تغيير التأريخ، وتحرير آلاف البشر الذين ما زالوا عبيدًا لديكم، في ذلك المساء، احتفلت السفارة البريطانية بجدّة بالسيدة (ماكينزي) والتي أطلق عليها السيد (أنتوني) لقب (القديسة ماكينزي).. دخلت إلى السفارة البريطانية، تسير ببطء، على دموع العاملين فيها وهتافاتهم وتصفيقهم وأحضانهم.

كما أكّد السيد (أنتوني) أمام الجميع، بأن (ماكينزي) ستذهب معه إلى لندن، على طائرته نفسها، وعلى مقعدٍ قريب من مقعده، وأن حكومته ستتكفل بكل عمليات الجراحة التي ستحتاجها السيدة، لعودة وجهها كما كان.

في الأول من سبتمبر - بعد يوم وليلة من وصول السيدة (ماكينزي) إلى السفارة البريطانية - أعلن الأمراء الصديريون الثمانية

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

انضمامهم إلى الأمير ولي العهد، أعلنوا ذلك عصر يوم اجتماع السيد (أنتوني) مع الأمير (نمر بن عبد العزّة آل سفود) ممثل الأمراء الصديرين وزعيمهم، مع أنه ليس أكبر إخوته.

وفي اليوم السادس من نوفمبر من سنة 1962 أصدر الأمير (قيصر) ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء، برنامجه الإصلاحي المعروف بـ "النقاط العشر" الذي قضت نقطته العاشرة بإلغاء الرق مطلقًا، وتحرير جميع الأرقاء وتعويض مُلاكهم، وأصبحت السلطة فعليًا بيد الأمير (قيصر) مع بقاء الشيخ (مسعود) رافضًا لتسليم صلاحياته – التي لم يعد يملك منها شيئًا – لأخيه الأمير ولي العهد، حتى جاءت سنة 1964 حين جاء الأمير (ماضي بن مساند) بخطة شيطانية لقلب الأمور لصالح الأمير (قيصر) نهائيًا.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

22

دخل الأمير (ماضي بن مساند) على الأمير، في السابع والعشرين من شهر أكتوبر من سنة 1964، وطلب منه أن يقول له شيئًا لا يريدُ لأحدٍ أن يطلع عليه، فأمر الأمير بانصراف الجميع وبقي منفردًا بالأمير (ماضي).. قال له الأمير (بن مساند) بعدما اطمأن إلى خلو المكان إلا منهما:

• يا سمو الأمير، لقد أصبح الخلاف بينك وبين الشيخ (مسعود) يؤثر على وحدة العائلة وتماسكهم، وهناك الكثير من الأمراء الذين تعرفهم أكثر مني، بدأوا يفكرون بالاستعانة بعبد الناصر للانقلاب على الحكم، يا سمو الأمير، أنت رجلٌ مؤمنٌ بالله، وكلنا نعلم بأن الله يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، و(آل السيخ) أخوالك، فلو أنهم أصدروا فتوى بعزل الشيخ (مسعود) نهائيًا عن الحكم، وتسليمك العرش، وطالبوك بتنفيذ رغبة الله، عندها ستكون أنت مُجبرًا على إطاعة الله ومعصية أخيك، وسيكون الشيخ (مسعود) كافرًا إن لم يمتثل لما يريد الله، ولن يستطيع أحد - لا أمير، ولا مواطن عادي - الوقوف أمام مشيئة الله.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

علم الأمير بأن هذه الفكرة محال أن تكون من بنات أفكار الأمير (بن مساند) إنها فكرة شيطان، وليس هناك في العائلة شيطانٌ أدهى من الأميرة (فاطمة).

شكر الأمير ولي العهد، الأمير (بن مساند) على فكرته العظيمة ووعده بأنه لن ينسى له تلك النصيحة، وأمره بالاستعداد لتولي وزارة مهمة في القريب العاجل.

يوم الأحد الأول من نوفمبر لسنة 1964، اجتمع علماء الدين والقضاة، وأعلن المفتي العام (يعقوب بن إسحق آل السيخ) خلع الشيخ (مسعود) عن الحكم، ليخلفه الأمير (قيصر) شيخًا وحاكمًا مطلقًا.

بعد تلك الفتوى بيومٍ واحد، في يوم الاثنين الموافق للثاني من نوفمبر من سنة 1964 بويع الأمير (قيصر) شيخًا من قبل العائلة وبقية الناس، وفي أول اجتماعٍ للشيخ الجديد بمجلس الوزراء، تم تعيين الأمير (ماضي بن مساند) وزيرًا للنفط، استقبلت الأميرة (فاطمة) خبر تعيين زوجها وزيرًا للنفط، بخيبة أمل كبيرة، فقد كانت تريد أن يعيّن الشيخ (قيصر) زوجها وليًّا للعهد، لتصبح هي حاكمة البلاد المطلقة بعد وفاة الشيخ، لذلك طلبت من زوجها رفض المنصب، لأن وزارة النفط من أهم الوزارات عند العائلة، وسوف يكيدون له لا محالة، إضافة إلى أن الأمير (بن مساند) سيكون مكشوفًا تحت الأضواء في الداخل والخارج، وهذا الأمر بالغ الخطورة، لأنها غير

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

متأكدة من قدرة زوجها على التصرف في الأماكن التي لن تكون هي متواجدة معه بها، قررت أن تساعد زوجها في تعلم القراءة والكتابة، فلا يعقل أن يبقى هكذا والأمور بدأت بالتطور سريعًا لمصلحتها، وعندما سألها زوجها عن إمكانية تعلمه القراءة والكتابة، وهل سيكون قادرًا على الظهور بمظهر المثقف وهو جاهل، أجابته بأن معظم أمراء العائلة، وحتى الشيوخ، لا يجيدون الكلام أيضًا، وليس القراءة فحسب.

أرسل الأمير (ماضي بن مساند) رسالة إلى الشيخ (قيصر) يعتذر فيها عن قبوله تولي وزارة النفط، ويخبره فيها أنه ابنه الوفي المطيع له دائمًا بوزارة، أو بدون وزارة.

مع الأيام أهملت الأميرة (فاطمة) زوجها قليلًا، فلم تعد صارمة معه في استئذانها بكل شيء، وسمحت له أخيرًا بالسفر بدونها إلى دول العالم مثل باقي أمراء العائلة، والمبيت في فنادق مرفهة، ومعاشرة بعض الجواري وعاهرات أوربا وأمريكا.

أهملت الأميرة (فاطمة) زوجها، لأنها كانت تتعرض إلى ضغوطٍ شديدة من قبل العائلة، وصلت تلك الضغوط إلى والديها، أصبحت العائلة مدركة بأن (فاطمة) هي من تتحكم بالأمير (ماضي بن مساند) والأمير لا يقوى على معارضتها حتى في أتفه الأمور، الأمير (ماضي بن مساند) هو الأمير الوحيد في العائلة الذي ليس له ذرية، فالأميرة (فاطمة) لم تعد تحبل، بسبب الأكياس المائية التي تتكاثر في

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

رحمها بشكلٍ غريب، كما أن نطف الأمير أصبحت ضعيفة مع الوقت ولم تعد خصيته الوحيدة المتبقية قادرة على إنتاج حيامن قوية، قادرة على التغلب على الأكياس الرحمية لدى الأميرة (فاطمة).. طالبت العائلة باستمرار من الأميرة فاطمة، السماح لزوجها بالتزوج عليها، أو ترك الحرية له في وطء ما ملكت يمينه على الأقل، لتكثير نسل العائلة، لكن الأميرة (فاطمة) كانت رافضة لكل تلك الضغوط، وتعتمد على العلاج الطبي الذي لم تفقد الأمل منه بعد.

هكذا مرّت السنوات العشر الأخيرة، من غير أن تحظى (فاطمة) بذرية، وما زالت مصممة على موقفها من عدم السماح لزوجها بالتزوج عليها، ولم ينفد صبرها بعد، من العلاج، لكن الإخوة الصديريين نفد صبرهم، مع بقاء الشيخ (قيصر) في الحكم طوال هذه السنوات، وإذا استمر الحكم على هذا المنوال فلن تصل السلطة إليهم أبدًا، فما زال هناك أربعة إخوة من أبناء الشيخ (عبد العزّة) أكبر منهم، ينتظرون في طابور الحكم.

اجتمع رأي الإخوة على إبعاد الشيخ (قيصر) عن الحكم، وضمان وصولهم إليه بطريقةٍ سلسة لا تثير الشبهات، وبما أن الشيخ (قيصر) قد عين أحد إخوته البلهاء، الأمير (جالد) والذي كان بدويًا ولا يعرف شيئًا عن الحكم، بل كانت جلُّ اهتماماته تتعلق بالصيد والمبيت في خيمة من الشعر في الصحراء وحضور سباق الإبل، كان رأي الإخوة الصديريين أنهم سيسمحون لولي العهد الأمير (جالد)

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

البدوي بتولي العرش في مرحلة ما بعد الشيخ (قيصر) والاكتفاء بالحصول على ولاية العهد في المرحلة المقبلة، وبما أن ولي العهد (جالد) غير قادر على الحكم، وسبب جعله وليًا للعهد، حتى لا تتكرر منافسة الأخوين (قيصر، ومسعود) فسيكون الحكم فعليًا بيد ولي العهد الصديري، وقد تم ترشيح الأمير (نمر بن عبد العزّة آل سفود) ليكون وليًا للعهد في حالة إبعاد الشيخ (قيصر).

تعهد الأمير (نمر) لإخوته الصديريين بأنه سيعمل على إزاحة كل إخوته غير الأشقاء، وجعل الحكم حكرًا على العائلة الصديرية، فكر الإخوة الصديريون في طريقة لإبعاد الشيخ (قيصر) فلم يجدوا غير قتله، فأخواله علماء الدين من آل السيخ لن يقبلوا أن يفتوا بعزل ابن أختهم (قيصر) كما فعلوا مع أخيه الشيخ (مسعود).. إذًا لا توجد هناك طريقة أخرى لجعل الشيخ (قيصر) يتنازل عن الحكم، غير قتله.

من يقتل الشيخ؟

الإجابة على هذا السؤال، هي الطريق الوحيد لوصولهم إلى السلطة، وكان الإخوة الصديريون في تلك الفترة، ممسكون بزمام الأمن والاستخبارات وأجهزة التجسس في البلد، فقد كان الأمير (نمر بن عبد العزّة) حينها وزيرًا للداخلية، وكان شقيقه الأمير خليفة وزيرًا للدفاع، وشقيقهما عدنان أميرًا لمنطقة الرياض، والأمير طايف نائبًا لوزير الداخلية، وهم الأربعة أشقاء من أم واحدة هي الأميرة (قسمة بنت حمود الصديري) والأهم من ذلك أنهم يعتبرون من الناحية

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

الإدارية والتنفيذية، المسؤولون بالدرجة الأولى عن أمن السلطة والعائلة والشيخ والبلد برمتها، وهذا سيجعلهم مقصرين في حالة تمّ اغتيال الشيخ من خارج أفراد العائلة، فأمراء العائلة فقط يسمح لهم بحرية التجوال داخل قصر الشيخ، لا بدَّ إذًا من اختيار فرد من العائلة ليقوم بتلك المهمة، وقد وقع الاختيار على الأمير (ماضي بن مساند) لأنه أنسب شخص يقوم بتلك المهمة، فهو الأمير الوحيد الذي ليس لديه أشقاء، وكذلك ليس لديه ذرية، كما أنه شخص بسيط ومنعزل، ولا أحد يعرفه من عامة الشعب، أو من الدوائر العالمية، فيسهل عندئذ اتهامه بالجنون مثلًا، لتبرير عملية الاغتيال.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

23

التقيتُ بـ (ماكينزي) في عطلة الميلاد في ضواحي لندن، كان ذلك في أوائل شهر يناير من سنة 1962 حيث كانت ترقد في المستشفى، إنها المرّة الأولى التي لم نكن فيها خائفَين، لا أستطيع أن أقول الآن من منّا كان الأكثر سعادة بهذا اللقاء، كما أنه من الصعب بمكان، أن أصف نوعية علاقتي ومشاعري بهذه الإنسانة، حتى بعد اثني عشر عامًا من معرفتها، رأيتها أول مرّة، بعد أن تمّ تعييني رسميًّا طبيبًا خاصًّا للشيخ (قيصر) وعائلته، عندما كان أميرًا في ذلك الوقت، سنة 1951، بدلًا من الطبيب (خان) الذي قتل بسبب ما أشاعته الأميرة (فاطمة) حينها، بأنه قد تحرش بها جنسيًّا، فأخبرتُ الشيخ (قيصر) يومها، بعد أن عاينتها وكانت ممزقة، بأنها لن تستمر على قيد الحياة طويلًا، وأذكر تمامًا جوابه الواثق وهو يبتسم ويقول:

- بل أنها ستتعافى وتعيش، لأنها تمتلك روحًا عنيدة، لا يمتلكها الكثير من بني البشر.

كما أنه طلب مني عدم التسرع باتخاذ الأحكام، والتعلم من سيرة أبي الطويلة مع والده الشيخ (عبد العزّة) فقد كان والدي (السير

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

بيلفي) طبيب الشيخ المؤسس الخاص، ومستشاره، والوسيط بينه وبين التاج البريطاني، وفي الحقيقة فإن العائلة الحاكمة تدين لأبي بالكثير، منها على سبيل المثال وليس الحصر، دوره البارز باستلامهم العرش، بعد أن أقنع أبي الحكومة البريطانية بالتخلي عن حليفهم السابق (الشريف حسن) ودعمهم للشيخ (عبد العزّة) في توحيد البلاد وسيطرة أسرته على جميع مناطق شبه الجزيرة العربية، حتى بعد وفاة الشيخ (عبد العزّة) بقي أبي مستشارًا للعائلة حتى وفاته سنة 1960 في لبنان، وبالطبع فقد ورثتُ مكانة أبي لدى العائلة، إضافة لعملي كطبيب خاص للأمير (قيصر) وعائلته وجواريه، طلبتْ مني السفارة البريطانية في جدّة، التواصل مع (ماكينزي) ونقل الرسائل والصور التي تلتقطها، بعد أن تمّ تجنيدها من قبل السفير (تيلهام).. كانت لقاءاتنا تقاس بالثواني، وهناك لقاءات نادرة كانت تأخذ دقائق معدودة عندما تكون هي مريضة أو متعرضة إلى عقوبة، وكان يُطلب مني معاينتها، كما في تلك المرّة التي تعرض فيها وجهها إلى الحرق بالأسيد، تلك المرّة بقيت محفورة في ذاكرتي كما بقيت آثار حفر الأسيد بوجهها حتى هذه اللحظة، بعد أن خضعت لأكثر من عشرين عملية ترميم للوجه، كانت أكثر المرات التي كنّا نلتقي بها، عندما كنتُ آتي لفحص ابنتي الأمير (قيصر) اللتين بقيتا في قصر أمهما الأميرة (فاطمة) بعد أن تزوجت من الأمير (بن مساند) وانتقلت للعيش معه في قصره، كانت تصطدم بي أثناء الدخول أو

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

الخروج، وترمي عليَّ بنيجاتيف الأفلام، أو الرسائل التي كانت تكتبها عن مشاهداتها في القصور.

هناك شيءٌ مميّزٌ في (ماكينزي) بالرغم من أنها كانت مميزة في كلِّ شيء.. (ماكينزي) تمتلك أجمل ابتسامة يمكن أن تراها يومًا، وليس من السهل أن ترى (ماكينزي) تبتسم، فأنا رأيتُ ابتسامتها لمرتين فقط، طوال تلك المدّة التي عرفتها بها، المرّة الأولى كانت عندما كنتُ أعقم جراح الأسيد، وأخبرتها أني سأكون الوسيط بينها وبين السفارة، والمرّة الثانية هي يوم التقيتها أول مرّة في المستشفى، بعد خلاصها من العبودية، بشهر ونصف تقريبًا، من مدّة إقامتها في لندن، ابتسمت لما رأتني، هذا كل شيء، مع أني كنت أتوقع أن نحتضن بعضنا البعض، ونتشاطر أطراف الحديث عن أيامنا السابقة، لكنها ابتسمت فقط وعادت إلى الجلوس في ركن الغرفة، حيث اعتادت الجلوس، عندما تكلمتُ مع الممرضات والأطباء هناك، قالوا بأنهم عجزوا عن تغيير طبائعها، وأخيرًا تركوا لها حرية الجلوس في الزاوية، هناك شيء آخر أخبرتني به الممرضة، وهو أن (ماكينزي) لا تتناول طعامها حتى تخرج الممرضة وتغلق خلفها الباب، وهذا بالطبع اكتشفته الممرضة بالصدفة، بعد أن عجز الجميع على جعلها تتناول الطعام، وبعد عدّة مرات من استخدام القوّة معها أو تخديرها وتغذيتها عن طريق الوريد، تكلمتُ أيضًا مع طبيبها النفسي الذي عجز هو الآخر عن جعلها تتحدث إليه عن طريق الكتابة، لقد

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

اختارت (ماكينزي) السكوت وليس مجرد الصمت، فإننا حينما نختار أن نصمت فإننا نتحدث بأعيننا أو بأجسادنا أو بتعابير وجهنا، لكن (ماكينزي) اختارت السكوت المطلق، فعيناها لا توحي لكَ بشيء غير الفراغ المهول، ووجهها لا يظهر عليه شيء لأن كل عمليات الترميم لم تنجح، كانت جروحها لا تلتئم ووجهها يرفض الترميم بعناد غريب، لكنها ابتسمت لي، وهذا ما جعلني آتي إليها كل يوم، لمدة أسبوعين، حتى انتهت إجازتي، وعدتُ إلى قصر الأمير، خلال هذين الأسبوعين، لم تبتسم (ماكينزي) لي، لكنها تكلمت معي، لمرّة واحدة فحسب، من زاويتها التي تجلس فيها، تكلمت، بصوتِ قلمها، أخرجت دفترًا عتيقًا وقبل أن تكتب أي شيء، أشارت لي بأن أجلس عندها، كتبتْ، بعد أن أخبرتها بأن الحكومة تفكر في إحضار والديها لرؤيتها:

• لا، لا يا سيد (جوني) لا أريد أن يعرفا بأني هنا، على الأقل حتى يكون بمقدوري تحمل الألم الذي سوف أراه في عيونهما، إنهما يحلمان الآن بوجه تلك الطفلة الجميلة التي كُنتها، لكنني لم أعد جميلة، حتى لو نجح الأطباء في إعادة وجهي، فلن أكون جميلة، هناك وحشٌ قبيح يسكن بداخلي، إنه يلتهمني من الداخل، هذا الوحش أقبح وأقسى وأشد إجرامًا من الشيخ (قيصر) نفسه، إنه يتقيأ في عقلي، قيئًا مسمومًا على شكل أسئلة موجعة، تؤلمني أكثر من ألم الأسيد، إنه يأكل إيماني بيسوع، هذا إن لم يكن قد انتهى منه تمامًا،

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

أين الله في كل هذا الذي جرى؟ هل حقًّا هناك إله ما، يرى ويسمع ويفهم ويشعر بنا؟ يقولون أن هناك حكمة خلف كل هذا، أي حماقة غبية تسمح بحدوث كل هذا الشرّ؟ ما يوجعني أكثر يا سيد (جوني) هو التفكير في إمكانية أن نكون قد عشنا أكبر خدعة في التأريخ البشري وأن يسوع كان كاذبًا، هل تستطيع أن تتخيل أن كلّ أولئك الأنبياء والرجال الصالحين والقديسين كانوا كاذبين؟ هل تستطيع أن تتخيّل أن يسوع اكتشف كذبتهم وجاءنا بكذبة أكبر؟ في كلتا الحالتين يا سيد (جوني) قد توصلت إلى نتيجة؛ بأننا مجرد دمى، يحركنا الجنس والقوة والمال والسلطة.

ثم سكتت (ماكينزي) وكأنها لم تكتب حرفًا واحدًا منذ البداية، لم أستطع أن أرى أي ملامح على وجهها أو في عينيها أو حتى في صوت وسرعة تنفسها، ما يوحي إلى أنها كانت تتواصل معي منذ قليل، عادت ساكنة مثل ليلةٍ صحراوية بلا قمر، طالما سألت نفسي: "كيف يمكن لفتاة في العشرين، استعبدها القدر منذ أن كانت طفلة في الثامنة، أن تتكلم بهذه الكلمات؟ هل يعقل بالفعل أن تكون قديسة كما وصفها البعض؟ كيف يمكن أن تكون قديسة وهي لم تعد تؤمن بيسوع وعدالته ومحاربته للشرّ؟ هل يمكن أن تكون (ماكينزي) نبيّة -دون أن تدري ربما - أرسلتها قوى غيبية ما، وأسدت إليها مهمة كشف عالم العبيد من الباطن؟" أنا أيضًا مثل (ماكينزي) لم أعد أعرف شيئًا..

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

(مـاكينزي) ولأمـرٍ لم أفهمـه في حينـه، أهـدتني دفـتر مـذكراتها، لكـني الآن، فهمت.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

24

تولى الأمير (نمر) مهمة إقناع الأمير (ماضي) بالعملية، فقد اقتنص وجود الأمير (ماضي) في أوربا، وتبعه إلى هناك، لقد كان يتحين الفرص لمفاتحته بالموضوع، ولن تسنح فرصة أفضل من وجود الأمير (ماضي) في أوربا، بعيدًا عن أعين العائلة، وخصوصًا عن زوجته الأميرة (فاطمة).

في التاسع من شهر يناير من سنة 1975 وجه الأمير (نمر بن عبد العزّة) دعوة لابن أخيه الأمير (ماضي بن مساند) لتناول العشاء في منزله الريفي الهادئ، أثناء العشاء، لاحظ الأمير (ماضي) خلو منزل الأمير (نمر) من الخدم والحرّاس، حيث كان الأمير (نمر) هو من يقوم بالخدمة أثناء ترتيب المائدة وإحضار الطعام وصب النبيذ الأحمر، وعندما سأله (ماضي) عن سبب فراغ المنزل من الخدم، قال الأمير (نمر):

- لأني أريد أن أتكلم معك بأمرٍ خاص جدًّا، لكن عليكَ أن تعدني أولًا بأن هذا الأمر سيبقى سرًّا.

فقال الأمير (بن مساند):

- أعدك يا عمّ.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

قام الأمير (نمر) حينها من المائدة، وتوجه إلى خزانة سرية في حائط المطبخ - خلف إحدى اللوحات البسيطة - وفتحها ببصمة إصبعه الوسطى، وأخرج منها ملفًّا أخضر اللون، ثم عاد إلى المائدة، وقال:

• هذا ملف سري، أعدته السفارة البريطانية في جدّة، سأقرأ عليك أهم ما جاء فيه:

"في ضوء أحداث الاثني عشر شهرًا الأخيرة، نرى أن احتمالات حدوث انقلاب عسكري ناجح هنا قد تضاعفت، ما زلنا نرى أن النظام قد يصمد 5 أعوام أخرى... والدرس المستخلص من هذا هو أن نتجنب قدر المستطاع أي التزام يمتد زمنيًّا أكثر من خمسة أعوام، أو يترك الشركات بدون تدفقات نقدية في تلك الأثناء."

الوضع في غاية الخطورة يا (ماضي) سيعلقوننا على كل أعمدة الكهرباء، ستحدث مجزرة رهيبة ولن ينجو منها أحد من العائلة.

فقال الأمير (بن مساند):

• لكنكم تستطيعون القضاء على الخطر قبل وقوعه، أليس كذلك؟

قال الأمير (نمر):

• في الحقيقة، فإن الشيخ (قيصر) قد أوصل العائلة والبلد إلى وضعٍ حرج جدًّا، كنّا نعتمد على أصدقائنا الأمريكيين والأوربيين في مساعدتنا والوقوف معنا، لكنه بقطع إمدادات النفط قد جعل العالم

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

كله يقف مع أعدائنا، يا (ماضي) يا بُني ليس هناك إلا حلٌّ واحد للخروج من هذه الكارثة.

فقال الأمير (بن مساند):

• وما هو يا عمّ؟

قال الأمير (نمر) وقد رفع بصره للسقف وتلاعب قليلًا ببياض عينيه الكبيرتين وبدا وكأنه يتأمل الله:

• لقد اجتمع كل أبناء الشيخ (عبد العزّة) وأعمامنا من (آل سفود) ما عدا الشيخ (قيصر) في قصر أخينا الأمير (عدنان) في الرياض، لقد اجتمع أكابر العائلة فقط ولم يحضر أحد من الأحفاد، لذلك فلا تعتقد بأنك الوحيد الذي لم يدعَ إلى الاجتماع، وبعد مداولة دامت ثلاثة أيام، اتفق الحضور بالإجماع على عزل الشيخ (قيصر) وتنصيبك مكانه.

فقال الأمير (بن مساند) باستغراب مصحوب بشهقة وكأن عينيه خرجتا من مكانها:

• أنا!!!!!

قال الأمير (نمر):

• نعم أنت يا بني، لأنك الوحيد الذي ليس لديك طمع في العرش، وأنت الوحيد من العائلة الذي رفض وزارة النفط، مع أن هناك من الأمراء من هو على استعداد لقتل أبيه، من أجل أن يكون في هذا المنصب الذي رفضته.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

سكت الأمير (بن مساند) وفي نفسه فرحة طفولية لم يكن قادرًا على إخفائها أو تمثيل دور الغبي في هذا الموقف، ربما شعر لأول مرة أنه أميرٌ حقًّا، بل أميرٌ نبيل وبطل، وقادر على حماية مَن تحت جناحه، المشاعر التي شعر بها الأمير (بن مساند) لم تكن خافية على الأمير (نمر) لذلك راح الأمير يطرق الحديد وهو ما زال ساخنًا، فقال:

- طلب مجلس العائلة مني شخصيًّا ومن إخوتي الأشقاء في الدفاع والحرس والجيش والاستخبارات، تأمينك، ومساعدتك في كلِّ ما تحتاجه حتى تصبح شيخنا وولي أمرنا ومنقذ العائلة، بعدما يرى العالم أننا لسنا أعداءه وأننا قد عزلنا من تسبب بكل هذا الخراب والدمار، سيقف معنا ويحمينا، وما أن تستتب الأمور حتى تعين وليًّا للعهد تراه مناسبًا ويسير على مسارك الحكيم والشجاع نفسه،

هه.. ما قولك يا بني؟

فقال الأمير (بن مساند) وقد تحولت الفرحة في فمه إلى لُعاب:

- أنا لا أستطيع مخالفة أعمامي فيما اتفقوا عليه.

قال الأمير (نمر):

- بارك الله فيكَ يا بني.

فقال الأمير (بن مساند):

- هل يمكنني أن أخبر زوجتي الأميرة (فاطمة)؟ فهذا الخبر سيجعلها سعيدة.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

قال الأمير (نمر):

• ولماذا العجلة يا صاحب السعادة؟ نخشى أن يكون في قصرك جواسيس للشيخ (قيصر) فتفشل خطتنا.

فقال الأمير (بن مساند):

• نعم، معك حق.

قال الأمير (نمر):

• والآن لأخبرك بتفاصيل الخطة، أنا أكون في مكتبي في وزارة الداخلية وشقيقي (عدنان) سيكون على مقربة منك في قصره في الرياض، وسيكون شقيقنا (طايف) في المنطقة الشرقية يسيطر على قطعات الجيش هناك، أما الأمير (خليفة) وزير الدفاع، فسيكون في جدّة يسيطر على كل قطعات الجيش في الحجاز، عليك أن تعرف يا بني، أن كل من يعمل في قصر الشيخ (قيصر) هو معنا، أنت تذهب إلى القصر في الصباح، تدخل على الشيخ (قيصر) وتطلق عليه رصاصة في رأسه وينتهي كلُّ شيء.

فقال الأمير (بن مساند):

• ألا توجد طريقة ثانية غير قتل الشيخ؟

قال الأمير (نمر):

• لا، لا توجد أي طريقة ثانية، المهم.. دعني أكمل لك الخطة.. بعد أن يموت الشيخ يأتي إليك الأمير (عدنان) على الفور ويبايعك شيخًا، ثم أحضر أنا إلى القصر وأبايعك وأتصل بالتلفزيون

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

الذي سيكون فيه أكبر أبناء أبينا الشيخ (عبد العزّة) الأمير (حمد) وهو من سيقرأ نبأ وفاة الشيخ (قيصر) بسكتة قلبية وتنصيب العائلة لكَ شيخًا على البلاد والعائلة، سيكون كل إخوتنا وقتها في بيت الأمير (خليفة) في جدّة، وسيبعثون لك برسالة واحدة يبايعونك بيعة رجلٍ واحد، لكني أتمنى يا صاحب السعادة، أن تكون لديك ثقة بي وبأشقائي الصديريين ولا تعفينا من مهامنا، لأننا سنكون يدك اليمنى التي تضرب بها أعداءك وتصافح بها أصحابك.

فقال الأمير (بن مساند) وقد ارتفع صدره فجأة:

- بل أنتم تستحقون المكافأة يا عمّ.

بعدما عاد الأمير (بن مساند) إلى مكّة، وجه إليه الأمير (عدنان) دعوة إلى الرياض، بقي في الرياض ثلاثة أيام، كان الأمراء الصديريون يعاملونه معاملة الجالس على العرش، ثم بعد ذلك بشهر دعاه الأمير (خليفة) وزير الدفاع، إلى جدّة وبقي هناك يومين محاطًا بالإخوة الثمانية، كانوا ينادونه بصاحب السعادة مرّة، ومرّة بصاحب الجلالة ومرّات كثيرة بسيّدي، وهم أعمامه ويكبرونه سنًّا، وهو لم يطلب منهم أبدًا رفع الكلفة.

الأميرة (فاطمة) في تلك الفترة كانت تتردد على أحد الأمراء العائدين حديثًا من أمريكا، ويبدو أن هناك نوعًا من الجذب بين الطرفين يلوح في الأفق.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

الأمير (بن مساند) كانت دقات قلبه تتسارع، وكأنها تريد أن تسبق الوقت كي يجلس على العرش، كان يحلم الحلم نفسه كلّ يوم: "هو جالس على العرش والأميرة (فاطمة) تجلس تحت قدميه، وهو يرفسها بشدة، لكنها تبقى متمسكة بنعليه وتقبلهما وتبكي وتستعطفه أن يسامحها، لكنه يعلم بأنها الوحيدة التي تعلم حقيقته، ينزل من العرش، يسير نحو حجرته، الأميرة (فاطمة) تحبو خلفه ممسكة بقدمه، يصل إلى سريره، ينحني عليها، يحملها، يرميها على السرير، ثمّ يقبّلها وهو ممسكٌ برقبتها، ويضغط بقوة على قصبتها الهوائية، يسمع صوت تحطم القصبة، يسمع صوت صمت الأميرة (فاطمة) ثمّ أخيرًا يسمعُ صوت حريته المفقودة، الصوت يتجسد بامرأةٍ مألوفة، نعم إنها العبدة (مكة) تأتي من بعيد، وتقترب شيئًا فشيئًا، حتى تخرج من حجرته وتجلس على العرش.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

25

ساعة الصفر، حددها الأمير (طايف بن عبد العزّة) لأنه أراد شاهدًا آخر، له ثقله وأمانته، من غير العائلة، وموظفي القصر، ليشهد على عملية اغتيال الشيخ (قيصر بن عبد العزّة).

ساعة الصفر، كانت يوم الثلاثاء، الموافق للخامس والعشرين من شهر مارس، من سنة 1975، حيث كان مقررًا أن يجتمع الشيخ بوزير نفطٍ عربي.

جاء الأمير (ماضي بن مساند بن عبد العزّة) وطلب مقابلة الشيخ (قيصر) فقيل له أنه سيستقبل وزير النفط بعد قليل في مكتبه، ولم يطل الأمر حتى طلب رئيس التشريفات من الحضور - الوزير الضيف وحاشيته والصحفيين والمصورين والأمير ماضي - بالدخول على الشيخ، تقدم الأمير (ماضي بن مساند) بثقة نحو عمه الذي أحنى له رأسه، كي يقبله كالعادة، فأمسك الأمير رأس عمه بيده اليمنى، وأخرج مسدسه بيده اليسرى، وأطلق ثلاث رصاصات على الشيخ، أصابت الرصاصة الأولى ما تحت ذقنه، ودخلت الثانية عبر أذنيه، ومسحت الثالثة جبهته، تراجع الأمير (ماضي) إلى الوراء بانتظار أن يعلنوه شيخًا، ليطبق يديه على قصبة الأميرة (فاطمة)

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

ويستلذ بسماع صوت طقطقتها، أصيب جميع الحاضرين بالذهول، حتى الأمير (ماضي) أصيب هو الآخر بالذهول، عندما تقدم منه أحد حرّاس الشيخ وضربه بغمد سيفه، كيف يتجرأ هذا الحارس ويضرب شيخ البلاد القادم؟

ارتبك (جميل) وسرت رعشة الخوف في بدنه، فلم يجد غير صديقه القديم (الغباء) الذي كان يساعده في هذه المواقف، فاستتر بالغباء وجلس على كرسيّ قبالة جثة الشيخ (قيصر) الذي فارق الحياة على الفور، كان الأمير (عدنان) أمير الرياض الأسرع في التحرك، واستطاع أن يؤمن الموقف تمامًا.

في هذه الأثناء كان الأمير (خليفة) في جدة، على مقربة من مراكز القوات العسكرية المتواجدة هناك في عاصمة الحجاز، كما توجه الأمير (طايف) على الفور إلى المنطقة الشرقية قبل إذاعة الخبر وانتشاره، وصدرت أوامر من الأمير (نمر) بإغلاق أبواب القصر ومنع الاتصالات الهاتفية واستنفر الجيش وأجهزة الأمن التابعة للداخلية بالدرجة القصوى، خلال أقل من ساعة وصل الأمير (عدنان) إلى القصر وأخذ الأمير (ماضي) معه في سيارته إلى قصره في الرياض ومنع تسليمه إلى السلطات، بحجة أن أعمامه يريدون مساءلته، عن سبب فعلته الشنيعة، في الطريق إلى قصره في الرياض أعلن في الراديو أنه تم اغتيال الشيخ (قيصر) على يد الأمير (ماضي) ابن أخيه وهو فاقد الأهلية ومختل عقليًا، والحادث شخصي بحت، كما أعلن الراديو

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

بعد لحظات من البيان الأول، بيانًا ثانيًا أعلن فيه أن العائلة بايعت ولي العهد الأمير (جالد) البدوي لحكم البلاد، وأن الشيخ الجديد أعلن في الوقت ذاته عن تعيينه الأمير (نمر بن عبد العزّة) وليًّا للعهد.

وصلت كذلك مكالمة هاتفية للأمير (عدنان) من شقيقه الأمير (خليفة) يخبره بأن الشيخ البدوي قد أصدر مرسومًا سريًّا بنقل كل صلاحياته الداخلية والخارجية إلى ولي عهد الأمير (نمر).. كذلك جاءته مكالمة من شقيقه (طايف) يوصيه بعدم ترك الأمير (ماضي بن مساند) لحظة واحدة بعيدًا عن أعين الأشقاء الصديريين الآخرين، وحماية (بن مساند) ومرافقته كظله، وعدم السماح لأحد من أفراد العائلة بالتحدث معه، وتعليل ذلك بأنه أصيب بصدمة، انهار على إثرها، وهو يخضع الآن للعلاج المكثف، وسيتم السماح لهم بمقابلته، حال تحسن صحته.

تمَّ بالطبع تطويق قصره، ووضع زوجته الأميرة (فاطمة) تحت الإقامة الجبرية، وقطع خطوط تليفونات القصر، ومنع أي أحد من أفراد عائلتها بزيارتها، كما منعوا عن القصر دخول أو خروج أي شخصٍ مهما كان، ولو أنهم استطاعوا منع الهواء لفعلوا.

بقي الأمير (ماضي بن مساند) اثنين وثمانين يومًا، محبوسًا في القبو، في غرفةٍ مظلمة بائسة، لا تختلف كثيرًا عن الغرفة التي ولد فيها، قتل خلالها سيدته الأميرة (فاطمة) باثنتين وثمانين طريقة مختلفة، كان يتخيّل أنه ملك الجرأة وقتلها بعد أيام من اعتراف العائلة

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

به كأمير من ذرية الشيخ (عبد العزّة) ومرّة قتلها حالما سمع خبر وفاة والدته، وقتلها مرّة أخرى ليلة زفافهما، حينما أخبرته بقتلها لخالته (أنيسة) ومرّة قتلها وهو يضاجعها، تحول قضيبه إلى سيف أولجه في أستها وصعد به إلى رأسها مخترقًا عظام عمودها الفقري، وهو منتشٍ بصوت انفلاق فقراتها، فقرة إثر فقرة، حتى وصل إلى رقبتها، واستمر إلى أن وصل إلى رأسها وفلقه إلى نصفين.

عند الساعة الثامنة ليلًا من اليوم الرابع من آيار -مايو - جاءتني مكالمة من ولي العهد الأمير (نمر) يطلب مني التوجه إلى قصر الأمير (بن ساند) لرؤية الأميرة (فاطمة) بعد أن سقطت من سطح القصر، أكّدَ عليَّ الأمير بكتابة تقرير طبي عن الحالة، لعرضه على العائلة، لأنهم لا يثقون بطبيبٍ محلي، كما أثنى على جهودي وجهود والدي من قبل في حفظ وحدة العائلة، وأوصاني أن لا أنجرف خلف الشائعات التي تريد تفريق العائلة في هذا الظرف الصعب.

بعد أن أنهيت المكالمة وجدت سيارة تنتظرني كي تقلني إلى قصر الأمير (بن ساند) المحاط بقوة أمنية كبيرة، في الطريق أعدتُ كلمات الأمير (نمر) في ذهني، لم أفهم: "ما تلك الشائعات التي عليَّ عدم تصديقها؟" حين وصلت وجدت الأميرة (فاطمة) تلفظ أنفاسها الأخيرة، وبنظرة سريعة تبين لي أنها ستموت لا محالة، فكسورها كثيرة وعميقة ولديها على الأقل ضلعين مكسورين يضغطان على قلبها، مما سبب لها نزيفًا داخليًّا لا يمكن إيقافه، بالإضافة إلى كسورها في

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

عمودها الفقري ورقبتها، أما يدها اليسرى فكانت مفصولة من كتفها وما زالت معلقة بجسمها بواسطة جلد الكتف فقط، حاولت أن أخفف ألمها كي تموت براحة أكبر، فحقنتها بحقنة مورفين مركزة، مما جعلها تسترخي وتدرك أنها في لحظاتها الأخيرة، ولم تعد تقاوم النهاية، طلبت مني بأدب سيجارة وكأس ويسكي، وقالت:

• أريد أن أموت وأنا سعيدة.

ثمّ أنها طلبت من الحرّاس وجواريها إخلاء غرفة نومها، فامتثلت الجواري إلى الأمر، بينما بقي الحرّاس، وقالوا بأنهم مأمورون بعدم تركها، فصاحت بهم الأميرة بصوتٍ مخيف، شعرتُ معه بالرهبة، قالت لهم:

• اخرجوا يا أبناء العاهرات، فإني ميّتة، ولا أريد أن تكون وجوهكم القبيحة آخر شيءٍ أراه.

ترك الحرّاس الحجرة وخرجوا، ثم أغلقوا الباب، بعد أن أشار لهم كبيرهم - كما يبدو — بالخروج، أشعلت لها السيجارة، فطلبت مني أن أدخن معها، وأن أشاركها الشراب، فرفضتُ، لأني لا أشرب وأنا في العمل، فقالت بأن عملي سينتهي عن قريب، وليس هناك ما يمكنني عمله، وإلا فإنهم لم يكونوا يحضرونني إلى هنا من الأساس، ثم أنها توفيت قبل منتصف الليل بعشر دقائق، لم تتوقف عن الحديث، والإشارة لي بإصبعها، أن ألازم السكوت، حينما كنتُ أرغب بمقاطعتها، أخبرتني قصتها كاملة مع زوجها السابق الشيخ القتيل،

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

وزوجها الحالي العبد (جميل) العراقي والذي تحول إلى الأمير القاتل، أخبرتني كذلك أن مربيتها (أنيسة) قد هربت من القصر أو تم اختطافها، لكنها أخبرت (جميل) بأنها قتلتها حتى لا يشعر بالخوف ويضعف ويكشف كلَّ شيء، أخبرتني أنها تريد أن يعرف العالم أي أسرة هي أسرتها، لكنها تضحك في كلِّ مرّة يصل فيها الكلام إلى الأسرة، وتقول أنها تروي قصتها لحوائط الغرفة، ولهوائها، ولستائرها، وللأثاث الشاهد على كلّ ما حدث، لأنها واثقة بأني لن أفتح فمي وأبوح بقصتها لأحد.

في الحقيقة كنت أقاطعها، كي أتمكن من إقناعها بنقلها إلى المستشفى، لكنها بقيت مصرّة، على أنها تريد أن تموت في قصرها، وعلى سريرها، وأنها موقنة أن الإخوة الصديريين لن يتركوها تعيش.

كتبت تقريري عن الحادثة وسلمته إلى مبعوث الأمير (نمر) الذي أحضرني، وذكرت فيه أن سبب الوفاة هو توقف عضلة القلب تمامًا بعد نزيف داخلي طويل، نتيجة لسقوطها من مكانٍ مرتفع.

بعد تلك الليلة بأربعين يومًا، اقتيد الأمير (بن ساند) الساعة الرابعة عصرًا يوم الأربعاء، المصادف18 يونيو سنة 1975، بعدما حكمت عليه المحكمة الشرعية بالإعدام، دون أن تلتقيه أو تسمع أقواله،

اقتيد معصوب العينين، حاسر الرأس، موثوق اليدين، إلى ساحة تقع أمام قصر الحكم في الرياض، ثم أقعد على الأرض، وكان هادئًا

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

وهو يجثو أمام منصة الإعدام، قبل أن يرفع السياف سيفه، نادى الأمير (ماضي) بهدوء الأمير (عدنان) فأشار الأمير (عدنان) للسياف بالتمهل وذهب إليه، فهمس الأمير (ماضي) في أُذن الأمير (عدنان) ما قيل أنها وصيته الأخيرة، وأنه نادمٌ على ما فعله، ولأني كنتُ أقف على مقربة منه، سمعت الأمير (بن مساند) يهمس للأمير (عدنان) بصوتٍ خافت:

- لقد أخبرت الأميرة (فاطمة) بكل شيء.

فعاد الأمير (عدنان) إلى مكانه، بقربي، وأمر السيّاف بتنفيذ حكم الله بالأمير المجرم، الذي فجع الأمّتين (الإسلامية والعربية) باغتيال الشهيد الشيخ (قيصر بن الشيخ عبد العزّة آل سفود).

وفي تمام الساعة الرابعة والنصف عصرًا، شرع السياف سيفه وهوى به على رقبة الأمير (ماضي بن مساند) فسقط جسده، وتدحرجت رأسه إلى الأمام، وبعد قليل رُفعت رأسه على قناة ليراه الناس، وعُلِّق جسمه منكوسًا على لوح من الخشب، ليكون عبرة لمن يعتبر.

لكن رأس الأميرة (فاطمة) لم تفصل عن جسدها، فقد اكتفوا بدفنها في حديقة قصرها، حسب وصيتها كما أشاعوا.

بعد عملية الإعدام بأسبوع وأثناء وجودي في لبنان، في عطلةٍ قصيرة، قابلت السفير السابق (تيلهام) وأخبرته بكل ما قالته (فاطمة) فنصحني بعدم كتابة تقرير بذلك إلى الحكومة البريطانية وأخبرني بأنهم

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

كانوا يعرفون كلَّ شيءٍ عن عملية القتل ومن سينفذها وموعدها، كانوا يتنصَّتون على الأمير (نمر) في قصره في الخارج وسمعوا كل ما دار بينه وبين الأمير (بن ساند) وأنهم لديهم (آذان) حتى في السرداب الذي حبس فيه الأمير القاتل داخل قصر الأمير (عدنان) وزودني بمعلومات كثيرة مهمة ساعدتني في كتابة هذا الكتاب الذي اعتمدت فيه على معلوماته الجاسوسية السريّة والمواقف التي كنتُ شاهدًا عليها، إضافة إلى اعترافات الأميرة (فاطمة) التي خصتني بها، مع إضافة بعض الخيال الأدبي الذي كان لا بدَّ منه.

قبل ذلك اليوم باثني عشر عامًا، وتحديدًا يوم الخميس، السابع من شهر شباط - فبراير - من سنة 1963 ماتت (ماكينزي) التي كانت السبب في تحرير آخر العبيد، في مستشفى خارج ضجيج العاصمة لندن، بعد وصولها بثلاثة شهور.

حدد الأطباء سبب وفاتها نتيجة حقنها بحقنة سامة، من معدن البولونيوم، بعد وصولها إلى لندن بأسبوع على الأرجح، وكان من الصعب اكتشاف السم حتى ظهرت أعراضه، فقد أصيبت (ماكينزي) بفقر الدم الحاد، وضعف مناعة الجسد، وسقط شعرها بالكامل، رفضت (ماكينزي) إخبار أهلها أو رؤيتهم، وفضلت أن تبقى طفلة جميلة في ذاكرة والديها.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

جان ليون جيروم

يعتبر جيروم (بالفرنسية Jean-Léon Gérôme) من أعظم فناني فرنسا، ولد في العام 1824م في مدينة فيسول في فرنسا، انتقل الى باريس وهو بسن السادسة عشر، وتتلمذ هناك في عدة صالونات للرسم، إلا إن رسوماته لم تلق إعجابًا في بادئ الآمر، بدأ نجمه يسطع بعد العام 1848 حين حصل على الميدالية الثالثة عن لوحته صراع الديوك.

عملت رحلاته في أرجاء العالم على تطوير أفكاره وموهبته، كانت رحلته الإولى الى ايطاليا عام 1854، ثم شغفته مصر عندما زارها والتقى بالخديوي اسماعيل الذي عمل على بناء صداقة وطيدة معه، ثم دُعي الى حفل افتتاح قناة السويس عام 1869، ومن هناك استلهم لوحته الشهيرة التي تصور القائد الفرنسي (نابليون بونابرت) يقف امام تمثال ابو الهول، والتي اشتهرت على نطاقٍ واسع.

شُغف جيروم بالأنماط الشرقية في لوحاته، لذلك تضمنت الكثير من اعماله الزخارف الإسلامية والسجاد الفارسي، وقام برسم تفاصيل الملامح الشرقية ببراعة فائقة، وكان يصر على تقليد الشخصيات العربية في لوحاته السلاح بشكلٍ دائم، ويسبغ تلك الشخصيات العادات والتقاليد الشرقية بشكلٍ مفرط.

توفي جيروم عام 1904م في مرسمه بباريس ودفن هناك، واكتسبت اعماله على مدى تلك العقود شهرة واسعة، جعلته من أعظم مبدعي فرنسا في التاريخ الحديث.

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

زيد عمران

دكة مكة

- اسمعيني جيدًا يا (مكة).. لا يمكنكِ أن تتخيلي عذاب الروح الحرّة، في مجتمع من العبيد، لذلك عليكِ أن تقنعي بعبوديتكِ، وتتخلين عن فكرة أنكِ إنسانة حرّة، عليكِ أصلًا التخلي عن فكرة كونكِ إنسانة.

اسمعيني جيدًا وافهمي ما أقول لكِ، فأنا لم أتعود أن أقدم النصيحة إلى أحد، كما أني تعلمتُ كلّ ما سأقول لك بالطريقة الصعبة، لم يخبرني أحد، ولم يعلمني أحد؛ كيف أتصرف، حاولي أن تعيشي يومكِ دون أن تفكري في الغد، أو تأملي بيوم أفضل من يومك، حاولي.. وكرري المحاولة، وستنجحين، حاولي أن تستفيقي كل صباح، وأنتِ مخلوقة لهذا اليوم فحسب، انسي أنكِ كنتِ يومًا، كائنًا ما، انسي نفسكِ وأمكِ وأباكِ وابن جيرانكم وصديقاتكِ وألعابكِ ولون النهار وصورة القمر، سأطلب منكِ الآن شيئًا قذرًا - فكري به جيدًا - لا تحكمي عليه الآن، أريدُ منكِ أن تستمتعي، وأنتِ تحت أي حيوان يقوم باغتصابك، لا تكرهي نفسك، أو تحمليها ذنبًا، فأنتِ مجبرة على كلّ شيء، منذ اليوم الذي وقفتِ فيه على (دكّة) العبيد بجوار الكعبة.

العراق / بغداد - شارع المتنبي
email: ali_aa400@yahoo.com

ISBN 978-614-45

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner